علّمتني سُورة السَّجدة

الطبعة الأولى
الترقيم الدولي:

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف
صفر ١٤٤١هـ - تشرين أول - أكتوبر ٢٠١٩م.

يوزع مجاناً وصدقة جارية:
عن أرواح أموات جميع المسلمين والمسلمات

طباعة وإخراج
وليد محمود شكشك ٠٣ ٢١ ٧٦ ٤٣

لبنان - طرابلس

www.3alamatnisurah.com
www.3alamatnisourat.com

علّمتني سُورة السَّجدة

جمع وإعداد
م. عامر كبّارة

بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

أهدي هذا الكتاب إلى كل مسلم ومسلمة

وأخصُّ عائلتي الكريمة الكبيرة والصغيرة، وبخاصةٍ الأحفاد الأحِبَّة الذين أرجو الله عزَّ وجلَّ أن يحفظهم ويهديهم إلى الطريق الحق الذي ارتضاه.

وأرجو الله عزَّ وجلَّ أن ينفعنا بما نقرأ، كما أسأله عزَّ وجلَّ التوفيقَ والقبول؛ إنه سميع مجيب.

والحمد لله رب العالمين

*****

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم النبيين سيدِنا محمدٍ وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد: فقد دَأَبَ الرسولُ الكريم ﷺ على قراءة سورة (السجدة) في صلاة فجر يوم الجمعة؛ لأن لها فضلًا كبيرًا؛ حيث يذكِّرنا اللهُ تعالى فيها بأعمالِ المؤمنين الخالصة، وبجزاء الكافرين الجاحدين.

وهنا نُشيرُ إلى أهميَّةِ العمل الصالح، وأنه مفتاحٌ لدخول الجنة، وتلاوةُ القرآنِ وَحْدَها دون تطبيق لما ورد فيه لا تكفي، يقول الله تعالى: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الزخرف:٧٢].

كما لا ينبغي للمرءِ أنْ يَستزيدَ من العِلم لمجرَّد المعرفة، بل لا بدَّ من العمل بمُقتضَى هذا العلم، وإلا كان العلمُ حُجَّةً على المتعلِّم ووبالًا عليه يوم القيامة لقوله تعالى: ﴿ فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴾ [الشعراء:٩٤]، و (كبكبوا) أي: أُلقُوا في الجحيم على وُجوهم.

إنَّ المؤمن الذي يتفكَّر في آيات الله يُوقِنُ بأنَّ لهذا الكونِ خالِقًا

ومدبِّرًا، فلا يملك إلا أنْ يخضعَ ويسجدَ له سبحانه خشوعًا وشكرًا، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾﴾.

(إِذَا ذُكِّـرُوا بِهَـا) مِن أيِّ مُذَكِّـرٍ كان، وهنا تتجلى أهميةُ الاستجابة والتواضـعِ والانقيادِ للنصحية أيًّا كان صاحبُها، فاتِّباعُ الحقِّ والعملُ به لا يتوقـف على ذاتِ وصفاتِ حامِلِهِ وناقِلِهِ، - وإنْ كان يجبُ أن يكونَ قُدوةً في ذلك - فالحقُّ أَحَقُّ أنْ يُتَّبَعَ أيًّا كان مصدره.

والله جل جلاله غنيٌّ عن سجود جميع الخلق، ولكنه رزق المؤمنين السجود له وأعانهم عليه لأنه يحبهم، وهذا من أعظم التوفيق.

إن النفس البشريَّة كثيرًا ما تمرُّ بحالات من الغفلة والنسيان، وهي بحاجة لتذكير مستمرٍّ وتنشيط وتجديد للإيمان، فعَاهِدْ قلبَكَ، واستثمرِ الفُرَصَ والمواسم، كصلاة الليل، وشهر رمضان المبارك، وساعات الدعاء... إلى ما هنالك من أعمال الخير، وهي كثيرة ولله الحمد.

وإياكَ والتسويفَ والتأجيل؛ فإن سرعة الاستجابةِ لأوامر الله من أعظم علامات الشكر، وقد وعدَ اللهُ تعالى من يستجيب له بالجنة كما ورد في هذه الآية: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾، كما أنَّ جزاءَ مَن يستكبر عن طاعة الله النار؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر:٦٠]، وقد بيّن الله تعالى ذلك في سورة السجدة: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ

نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾.

ولذلك فَإنَّ مَنْ لم يخضع في الدنيا بإرادته سوف يخضع حتمًا في الآخره قهرًا وذلًّا لا محالة، ولا يستوي المؤمن مع غير المؤمن في ميزان الله عز وجل، فللمؤمن جنات الفردوس نزلًا، وللكافر عذاب جهنم وبئس المصير...

كما أن الله تعالى يمهل أولئك العاصِين في الأرض حتى يعودوا إليه، ويرسل لهم بعضَ الابتلاءاتِ والعذابِ خلال حياتهم عساهم يُدركون ويتفكَّرون ويرجعون إليه جلَّ وعلا قبل فوات الأوان وقبل وفاتهم، وكأنَّ السورة تعرض لنا النموذجين، وتسألنا: مع أيِّ الفريقين نحن؟ نسأل الله السلامة، وأنْ نكون من المؤمنين العاملين الشاكرين...

ولمزيد من التوضيح عن هذا الموضوع قُمنا بإعداد تفسيراتٍ عن سورة (السجدة)؛ لما فيها من فضائل كثيرة، وقد اقتبسنا ونقلنا – مع بعض التصرف – أقوال وتفسيرات العلماء الأفاضل في هذا الموضوع كما يلي:

معاني الكلمات وبعض هداية الآيات من كتاب «أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير» للشيخ أبو بكر جابر الجزائري رحمه الله.

«التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم» للشيخ الداعية محمد

الغزالي رحمه الله.

من خواطر وتفسيرات ومحاضرات الدكتور محمد راتب النابلسي حفظه الله.

وقد راجع المادة العلمية والشرعية الأخ / محمد عماد قلب اللوز – حفظه الله – الأستاذ في اللغة العربية والشريعة، فله منَّا جزيل الشكر، ونسأل الله له وللعلماء الأفاضل خير الجزاء.

كما نرجو أن نكون قد وُفِّقنا في عرض هذه المعلومات والشروحات في هذا الكتاب، وهو أحد الكتب من سلسلة كتب «علمتني..» الجاري نشرُها تِباعًا بإذن الله، نسأل الله عز وجل أن تلقى القبول؛ إنه سميع مجيب..

والله وليّ التوفيق

*****

سورة السجدة

آياتهـــا:

هي سورة مكِّيَّة ما عدا الآيات (١٦-٢٠) فهي مَدَنيَّة، وترتيب هذه لسـورة: الثانية والثلاثـون (٣٢)، وهي في الجزء الواحـد والعشرون من المصحف الشريف.

تسميتها:

قال العلماء: سُـميت سـورةَ «السـجدة» لِمَـا ذَكَرَ اللهُ تعـالى فيها من أوصـاف المؤمنـين الذين إذا سـمعوا آياتِ القـرآن العظيم ﴿خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾﴾، وقـد عُرِفـت أيضًـا بسـورة «ألم تَنزِيلُ» أو «ألم السـجدة»، كما ورد عن الرسـول الكريم ﷺ، والله أعلم...

أسباب النزول:

لم يذكر العلماءُ سـببًا محددًا لنزول السورة كلِّها، وإنما أوردوا أسبابَ نزولِ بعض الآيات، كما يلي:

عن معاذ بن جبل رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال له: «أَلَا أَدُلُّكَ عَـلَى أَبوابِ الخَيرِ؟ الصَّومُ جُنَّةٌ، والصدَقَـةُ تُطْفِئُ الخَطيئَةَ، وصَلاةُ الرَّجُلِ في جَوفِ اللَّيلِ، ثمَّ قَرَأ رسـولُ اللهِ: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ ...﴾

[رواه الترمذي والنسائي وابن ماجه].

عن أنـس بن مالـك رضي الله عنه أنَّ الآيـة ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ

﴿ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾﴾ نزلت في فضل انتظارِ صلاةِ الليل. [رواه الترمذي وابن أبي حاتم].

فضل السورة:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يقرأ في الفجر يوم الجمعة «ألم تنزيل»، أي: سورة «السجدة» في الركعة الأولى، وسورة «هل أتى على الإنسان» أي: سورة «الإنسان» في الركعة الثانية، [رواه البخاري].

عن جابر بن عبدالله رضي الله عنه قال: كان النبيُّ ﷺ لا ينام حتى يقرأ «ألم تنزيل» سورة «السجدة»، و «تبارك الذي بيده الملك» أي: سورة «الملك» [رواه الترمذي].

وللدارمي في مسنده من طريق عبدة عن خالد بن معدان أنه قال: اقرؤوا المُنجِيَةَ، وهي: (ألم تنزيل)؛ فإنه بلغني أن رجلًا كان يقرؤها، ما يقرأ شيئًا غيرها، وكان كثير الخطايا، فنَشَرَتْ بجناحها عليه، وقالت: ربِّ اغفر له؛ فإنه كان يُكثِرُ قراءتي، فشفَّعَها الربُّ فيه، وقال: اكتبوا له بكل خطيئة حسنة وارفعوا له درجة.

محور السورة:

إن محور السورة الأساس: الخضوع والتسليم لله تعالى، والشكر له على إنعامه.

كما أنها تؤكِّد على أن القرآنَ الكريم مُنزَلٌ من رب العالمين، وليس

من تأليف سيِّدِ المُرسَلين.

وقد بيَّن اللهُ سبحانه كيفيةَ خَلْقِ الإنسان، وأن الموت حقٌّ لا محالة لجميع الخلائق، وأن اللهَ تعالى سوف يبعثُهم في يومٍ لا رَيبَ فيه (يوم القيامة) للحساب والجزاء والثواب والعقاب، حيث يكون الصادقون من العباد والذين جاهدوا أنفسَهم لعبادة الواحد الديَّان في جناتِ النعيم جزاءً بما كانوا يعملون، وأما الضالون الفاسقون فمأواهم النارُ خالدين فيها أبدًا جزاءً بما كانوا يكذِّبون ويُعادُون المسلمين...

وفي السورة أيضًا تسليةُ النبي ﷺ بتقرير أحوال الأنبياء السابقين، وفيها بشارة للرسول بيوم الفتح، وتنبيهه للإعراض عن أهل الكفر؛ لأن العذاب سيصيبهم حتمًا عاجلًا أم آجلًا، والله أعلم.

سُورَةُ السَّجْدَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ الْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَٰلَمِينَ
﴿٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰهُ ۚ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا
مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣﴾ اللَّهُ
الَّذِي خَلَقَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ
ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا
تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَآءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ
إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ
عَٰلِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَٰدَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٦﴾ الَّذِيٓ أَحْسَنَ
كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ
نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ
مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَٰرَ وَالْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا
مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾ وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِي
خَلْقٍ جَدِيدٍ ۚ بَلْ هُم بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٠﴾ ۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم
مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾

معاني الكلمات:

١- الٓمٓ: هذه من الحروف المُقطَّعة، وتُقرأ: ألف، لام، ميم، والله أعلم بمُراده منها.

٢- لَا رَيْبَ فِيهِ: لا شكَّ في أنه نَزَلَ مِن ربِّ العالمين.

٣- أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰهُ: أي: يقول المشركون: إنَّ محمدًا اخْتَلَقَ القرآنَ [جاء به من عند نفسه].

٣- قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ: القوم: قريش والعرب، والنذير: الرسول.

٣- لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ: لعلهم يرجعون إلى الحق [دين الإسلام] بعد الضلال.

٤- ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ: أي: استوى على عَرْشِه استواءً يليق بكمالِهِ يُدَبِّر أمرَ خَلْقه بكيفيَّة لا يعلمُها إلا هو سبحانه.

٤- مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ: أي ليس لكم أيها المشركون من دون الله ولي يتولاكم ولا من يتوسط لكم.

٤- أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ: أفلا تتعظون بما تسمعون وتتفكروا فتؤمنوا وتوحدوا الله.

٥- يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَآءِ إِلَى الْأَرْضِ: أي: يتولَّى سبحانه - في عليائه - أَمْرَ المخلوقاتِ في الأرض طول الحياة.

٥- ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ: يصعد الأمرُ ويرتفع إليه.

٥- مِّمَّا تَعُدُّونَ: من أيام الدنيا.

٦- عَٰلِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَٰدَةِ: الغيب: ما غاب عن الناس ولم يرَوه، والشهادة: ما شاهدوه ورأوه في الدنيا.

٧- وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ: حيث خَلَقَ الإنسانَ الأولَ (آدم عليه السلام) من طين.

٨- مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ: أي: خَلَقَ ذُرِّيَّةَ آدمَ من ماءِ الرَّجُلِ (المنيِّ).

٩- ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ: سوَّى الجَنينَ في بَطْنِ أُمِّه، ونَفَخَ فيه الرُّوحَ فكان حيًّا.

٩- وَالْأَفْـِٔدَةَ: القلوب (والعقول).

٩- قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ: لا تَشكُرون اللهَ على نعمةِ الإيجادِ والإمدادِ إلا شُكرًا قليلًا لا يوازي قَدْرَ النعمة.

١٠- أَءِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ: أي: غِبْنَا فيها حيثُ فَنِينَا وصِرْنَا تُرابًا.

١٠- أَءِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ: أي: أَنَعُودُ خَلْقًا جَدِيدًا بعدَ فَنائِنا واختلاطِنا بالتراب؟

١٠- بَلْ هُم بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ: لم يَقِفِ الأمرُ عندَ عدم إيمانهم بالبعث، بلْ تعدَّاهُ إلى كُفرِهم بلقاء ربهم.

١١- قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ: أي: يقبِضُ أرواحَكُم مَلَكُ الموتِ المكلَّف بقَبْض الأرواح.

١١- ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ: أي: بعدَ الموت، فرُجُوعُكم حتميٌّ لا محالة.

من هداية الآيات

الآية: ٢-	تقرير النبوة المحمدية بتقرير أن القرآن تنزيلٌ من الله أوحاه إلى رسوله.
الآية: ٣-	إبطال ما يقوله المشركون في القرآن بأنه شِعْرٌ، ونصوصٌ من الكَهَنَةِ، وأساطيرُ الأَوَّلين.
الآية: ٣-	بيانُ الحِكمة من إنزال القرآنِ على النبيِّ صلى الله عليه وسلم، وهي – هنا –: الإنذار للبشر للإيمان به والعمل بتعاليمه.
الآية: ٤-	بيان مدة الزمان الذي خلق الله فيه السموات والأرض وما بينهما (٦ أيام بمقياس الله تعالى).
الآية: ٤-	إثبات صفة الاستواء على العرش كما يليق بكمال وجلال الله تعالى، ولا يجوز تشبيهٌ أو تعطيلٌ لهذا المعنى.
الآية: ٤-	تقرير أنَّ البشرية ما لها من إله إلا الله، وأنه ليس لها من دونه من مدير ولا شفيع، فما عليها إلا أن تؤمن بالله وتعبده فتسعد بذلك.
الآية: ٥-	بيان جلال الله وعظمته في تدبيره أمرَ الكونِ والخلائق أجمعين على الدوام.
الآية:٦-	بيان بعض صفات الله تعالى من العلم والعزة والرحمة.
الآية:٧-٨-٩	بيان كيفية خَلْقِ الإنسانِ من ذريةِ سيدنا آدم عليه السلام، ومادةِ خَلْقِهِ من ماء الرجل الذي يلقِّح بويضةَ المرأة.
الآية:٩-	شكر العباد لله تعالى – إن شكروا – لا يوازي نِعَمَ الله تعالى عليهم.
الآية: ٩-	وُجوب دوام شكرِ الله على النِّعَم بالاعتراف بها، وذِكْرِها، وحمْدِ الله تعالى عليها، وَصَرفِها في مَرضاتِه.
الآية: ١٠-١١	تقرير عقيدة البعث والحساب (الجزاء والعقاب) يوم القيامة (الذي لا مهرب منه).
الآية: ١٠-	تقرير أن الذَّنْب الذي هو سببُ كلِّ ذنب: الكفر بلقاء الله تعالى.
الآية: ١١-	بيان أنَّ لقَبْضِ الأرواح ملكًا خاصًّا، وله أعوانٌ من الملائكة، ويقبض أَنْفُسَ الناسِ كلٌّ في أجله، لا يستقدم ساعة ولا يستأخر.

وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ فَذُوقُوا۟ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ ۖ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾

معاني الكلمات:

١٢- إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ: المشركون المكذِّبون بلقاء ربهم.

١٢- نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ: مُطأطِؤُوهَا من الذُّلِّ والخِزْي.

١٢- رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا: أي: شاهَدْنا يومَ القيامةِ ما كُنَّا نُنكِره في الأرضِ من البَعث.

١٢- وَسَمِعْنَا: أي: تصديقَ ما كانت رُسُلُنا تأمُرُنا به في الدنيا.

١٢- فَٱرْجِعْنَا: إلى دار الدنيا.

١٢- إِنَّا مُوقِنُونَ: مُتأكِّدون.

١٣- لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا: أي: لو أَرَدْنا هدايةَ الناسِ قَسْرًا دونَ اختيارٍ منهم لفعلنا.

١٣- وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى: نَفَذَ قضاءُ الله، وهو مَلْءُ جهنمَ منَ الجِنَّة والناسِ الكافرين.

١٤- بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ: أي: بسبب تَرْكِكُم لما أَمَرْتُكم به من الإيمان باليوم الآخر.

١٤- إِنَّا نَسِينَٰكُمْ: تركناكم في العذاب.

١٤- عَذَابَ ٱلْخُلْدِ: العذاب الخالد الدائم في الآخرة.

١٤- بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ: من الكفر والتكذيب والشرك والسيئات والفواحش.

١٥- إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا: أي: وُعِظوا بما فيها من أمرٍ ونهيٍ ووعدٍ ووعيدٍ.

١٥- خَرُّوا۟ سُجَّدًا: وقعوا على الأرض ساجدين.

١٥- وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ: أي: نَزَّهُوهُ وقَدَّسُوه وهم ساجدون يقولون: سبحان ربيَ الأعلى.

١٥- وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ: يقومون بعبادة ربهم خاشعين مُتَذَلِّلين.

١٦- تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ: أي: تبتعد عن الفراش من أجل قيامهم للصلاة في جوف الليل.

١٦- خَوْفًا وَطَمَعًا: فيسألون ربَّهم النجاةَ من النار، ودخولَ الجنة.

١٧- مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ: أي: لا يعلم أحدٌ ما أَخفَى اللهُ تعالى وادَّخَرَ لهم عنده من النعيم الذي تَقَرُّ به أعيُنُهم وتُسَرُّ.

١٨- أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا: أي: مصدِّقًا بالله ورسولِه ولقاءِ ربِّه.

١٨- كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُۥنَ: لا يمكن أن يستوي الكافر بالله وتعاليمِهِ مع المؤمن الملتزم.

١٩- جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا: النُّزُلُ: ما يُعَدُّ للضيف من تكريم وعطاء.

٢٠- فَسَقُوا۟: عَصَوا وتجاوزوا حدودَ الشَّرْع.

من هداية الآيات

الآية: ١٢-	التنديد بالإجرام والمجرمين الكافرين في الدنيا، وبيان حالهم وذلهم يوم القيامة عند الحساب.
الآية: ١٢-	بيان عدم نفع الإيمان بالله عند معاينة [مشاهدة] العذاب في الآخرة، أو عند الموت.
الآية: ١٣-	بيان حكم الله في امتلاء جهنم من الكافرين من الإنس والجن الذين اختاروا الكفر بملء إرادتهم ولم يستفيدوا من الهدى الذي أرسله الله لهم من الأنبياء والكتب والآيات الكونية.
الآية: ١٤-	تقرير حكم السَّبَبِيَّة في الحياة الدنيا، فأعمال الإنسان سببٌ للجزاء خيرًا كان أو شرًا.
الآية:١٥-	فضيلة التسبيح في الصلاة، وهو تنزيه الله عز وجل عن كل ما لا يليق به وأن تنفي عنه صفات النقص وأن تثبت صفات الكمال واليقين بالقول: سبحان ربي العظيم في الركوع، وسبحان ربي الأعلى في السجود، وفي كل وقت، وخاصة عند السحر وعند الغروب.
الآية: ١٥-	ذَمُّ الاستكبار [التجبُّر والامتناع عن قبول الحقِّ] وأهلِهِ، ومَدْحُ التواضعِ وأهْلِهِ.
الآية: ١٦-	بيان فضيلة قيام الليل، بالصلاة والدعاء خوفًا من عقاب الله وطمعًا في رضاه والجنة وقبول الله تعالى لهذه الأعمال.
الآية: ١٧-	بشرى للمؤمنين الصادقين الخاشعين الغير متكبرين، الساجدين لله في السحر، وهي أنه تعالى أعَدَّ لهم من النعيم ما لا يستطيعون حتى تَخَيُّلَهُ، كما جاء في الحديث القدسي عن أبي هريرة رضي الله عنه: «أَعْدَدْتُ لِعبادِيَ الصَّالِحِينَ ما لا عَيْنٌ رَأَتْ، ولَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، ولا خَطَرَ على قَلبِ بَشَرٍ» [رواه البخاري ومسلم].
الآية: ١٨-	بيان خطأ مَن يُسَوِّي بين المؤمن والكافر، والبارِّ والفاجر، والمطيع والفاسق بالود وإن تساووا بالمعاملة الإنسانية في الدنيا لأن أحبَ الناس إلى الله تعالى أنفعهم للناس (كل الناس).
الآية: ١٩-٢٠-	بيان جزاء كلٍّ من المؤمنين والفاسقين ،كلٌّ حسبَ عمله. فالمؤمن بالجنة والفاسق بالنار (إلا من رحم ربي).

وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ
لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ
أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا
مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ۖ وَجَعَلْنَـٰهُ
هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ
بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ رَبَّكَ
هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ
﴿٢٥﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ
يَمْشُونَ فِى مَسَـٰكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ
﴿٢٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ
بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَـٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾
وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٢٨﴾
قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَـٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ
﴿٢٩﴾ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾

معاني الكلمات:

٢١- ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ: عذاب الدنيا من القَحْطِ والقَتل والأَسْر وغيره.

٢١- ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ: هو عذاب الآخرة في نار جهنم.

٢١- لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ: عسى أن يعودوا عن غَيِّهِمْ ويؤمنوا ويوحدوا الله تعالى.

٢٢- وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ: لا أحدَ أظلَمُ ممَّن دُعي إلى الله تعالى بتذكيره بمعجزاته فأنْكَرَها.

٢٢- إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ: فنتقم من المشركين بتعذيبهم في الآخرة.

٢٣- وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ: أي: أنزلنا عليه التوراةَ.

٣٢- فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ: أي: فلا تَشُكَّ - يا محمد - في لقائك بموسى عليه السلام، قيل: إن ذلك تمَّ ليلة الإسراء والمعراج، والله أعلم.

٢٣- وَجَعَلْنَـٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ: وجعلنا الكتاب (التوراة) هاديًا لبني إسرائيل.

٢٤- وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا: جعلنا من بني إسرائيل قادةً هُداةً يهدُون الناسَ بأمرِنا لهم بذلك وبإذننا به.

٢٤- وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يُوقِنُونَ: أي: وكان أولئك الهُدَاةُ على يقينٍ بآياتِ ربهم وما تحمله الآياتُ مِن وَعدٍ ووعيدٍ.

٢٥- إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ: أي: بين الأنبياء وأُمَمِهم، وبين المؤمنين والكافرين، والمشركين والموحِّدين.

٢٥- فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ: من أمور الدين.

٢٦- أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ: أي: ألم يتبيَّنْ لهم؟ لماذا أغفلوا؟

٢٦- كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ: أي: إهْلاكُنا لكثيرٍ من الأُمَمِ من قَبْلِهم بكفرهم وتكذيبِهم لرُسُلهم.

٢٦- يَمْشُونَ فِى مَسَـٰكِنِهِمْ: أي: يمرُّون ماشِينَ بديارهم وهي في طريقهم إلى الشام، كمدائن صالح.

٢٦- إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ: أي: دلائل وعلامات على قدرة الله تعالى وأليم عقابه.

٢٦- أَفَلَا يَسْمَعُونَ: أي: أَصَمُّوا فلا يسمعون هذه المواعظ والحُجج؟!

٢٧- أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ: أي: أَغَفِلوا ولم يرَوا خَلْقَ وتسييرَ الماءِ للإنبات والإخصاب؟!

٢٧- ٱلْجُرُزِ: اليابسة التي لا نباتَ فيها.

٢٧- تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَـٰمُهُمْ: أي: مَواشِيهم من إبلٍ وبقرٍ وغنم.

٢٧- أَفَلَا يُبْصِرُونَ: أي: أعمُوا فلمْ يُبصِروا أن القادرَ على إحياء الأرضِ بعد موتها قادرٌ على البعث؟

٢٩- مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْفَتْحُ: أي: الفصل والحكم بيننا وبينكم، فهُمْ يستعجلون العذاب باستخفافٍ!

٢٩- وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ: لا يُعْطَون مهلةً للتوبة أو الاعتذار.

٣٠- وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ: أي: وانتظر يا رسولَنا ما سيَحُلُّ بهم من عذاب إن لم يتوبوا، واحذَرْ منهم فإنهم ينتظرون بك موتًا أو قتلًا ليستريحوا منك.

مـن هدايـة الآيـات

الآية: ٢١-	بيان أنَّ الله تعالى عاقب أقوامًا كافرين وفاسقين على مَرِّ العصور بألوانٍ من المصائب لعلهم يتوبون [فكان العقاب اختبارًا لهم].
الآية: ٢٢-	بيان أنه لا أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بآيات الله [الكونية، وآيات القرآن الكريم] فيعرض عنها مُستكبرًا جاحدًا مُعاندًا وجزاؤه جهنم.
الآية: ٢٣-	تقرير أنَّ جميع الأنبياء رسالتُهُم واحدةٌ، وهي التوحيد بالله خالقاً وإلهاً واحداً لا شريك له.
الآية: ٢٤-	بيان ما تُنَالُ به الإمامةُ (القيادة) في الدِّين، وهو الصبرُ، وصِحةُ اليقين بالله تعالى، والقدوة الحسنة للمؤمنين وسائر المسلمين في أمور الدنيا والدين.
الآية: ٢٥-	كل خلاف واختلاف في هذه الحياة سينتهي بحكم الله تعالى فيه يوم القيامة وإن كان الخلاف في الدنيا لا يفسد للود قضية، وخصوصاً إذا كان اجتهاداً بنية حسنة.
الآية: ٢٦-	إن في إهلاك الله تعالى للأمم الكافرة الفاسقة السابقة أكبرَ واعظٍ لمن له قلبٌ وسمعٌ وبصيرة [عقل].
الآية: ٢٧-	تقرير عقيدة الحساب والجزاء يوم القيامة بالتذكير بالأدلة المُقَرِّرَة لها في الكون.
الآية: ٢٨-	استهتارُ وتحدِّي واستعجالُ الكافرين العذابَ في الدنيا دَالٌّ على جَهلِهم وطَيشهم، وسيلقونه حتمًا في الآخرة عند الحساب، وقبلها ما قد يكون في القبر.
الآية: ٢٩-	بيان أن التوبة في الدنيا لا تُقبَل عند مشاهدة ملك الموت ساعة الاحتضار فيجب الانتباه والإسراع في التوبة.
الآية: ٣٠-	ضرورة الإعراض عن الكافرين الفاسقين والجاحدين، وعن السماعِ لهم أو اتباعهم والجلوس معهم، وخصوصًا بما يخصُّ الدِّينَ.

سورة السجدة[1]

سورة السجدة «مكيَّة»، أفادت في صدرها[2] ميلادَ الأمةِ الإسلامية في التاريخ العام؛ فإن هذا القرآن النازلَ يقينًا من عند الله جاء إلى أمَّةٍ لم يكُنْ لها إِلْفٌ[3] بالوحي، فصاغها في قالب جديد، وحمَّلها رسالةً عالميَّةً!

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۚ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ۝٣﴾.

كانت هناكَ رسالاتٌ محليَّةٌ قديمةٌ في بعض القبائل والشعوب، انتهت في مكانها أو زمانها، أمَّا الرسالةُ التي تحرَّكَ بها العربُ أجمعون وغيَّروا بها وجهَ العالم، فهي رسالةُ محمدٍ ﷺ.

وناسَبَ هنا وَصْفُ الله الذي أَسْدَى[4] هذا الصنيع: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ۝٤﴾.

ولَمَّا كان خالِقُ هذا العالَمِ الرَّحْبِ هو مُدَبِّرَ أَمْرِهِ في لَمْحِ البصر - على سَعَةِ أرجائه - فقد احتاج ذلك إلى شرح...

إن الأرض تلفُّ حول نفسها كل أربعة وعشرين ساعة، وتلفُّ

١- من كتاب التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم للشيخ محمد الغزالي رحمه الله.

٢- صدرها: بدايتها.

٣- إلف: معرفة واستئناس.

٤- أسدى: قدَّم.

حول الشمس خلال ٣٦٥ يومًا، والشمس وأُسرَتها[١] تجري في مدارٍ حاشد بالنجوم، والمجرَّات السابحةُ في الفضاء لا ندري إلا القليل من شؤونها، والضوء يقطع المسافة بين الأرض والشمس في بضع دقائق! ما هذا الملكوت[٢] الضخم؟!

إن إدارة شؤونه تحتاج - بمقاييسِنا الزمنية - إلى أزمنة بعيدة.. قد تكون ألف عام أو أكثر، لكنها في عمل الخالق الكبير لا تستغرق زمانًا يُذْكَر، ما المدة التي تستغرقها العين في نظر المرئيات[٣]؟ لا شيء!

إن الله يريدُ فيَفعَلُ، فإذا في دُنْيانا مَحْوٌ وإثباتٌ، ووجودٌ وموات[٤]، وهزائم وانتصارات..إلخ.

﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦﴾ ﴾.

والأمَّة الإسلاميةُ التي ظهرتْ في تاريخ العالَم لها خصائصُ تميِّزُها عن أممٍ أُخرى! فهي أوَّلَ كلِّ شيءٍ توحِّد اللهَ وتَخُصُّه بالأسماء الحسنى، وترفع عمَلَها إليه، على عكس الحضارة الحديثة التي جَفَّتْ فيها مَنابعُ الربَّانيَّة[٥]، فلا تعبُد إلا نَفسَها، ثم هي لا تذكُرُ اليومَ الآخِرَ ولا تستعدُّ له،

١- أسرتها: المجموعة الشمسية.

٢- الملكوت: ملك الله وسلطانه (ويشمل جميع المخلوقات).

٣- المرئيات: الأشياء التي نراها بالعين.

٤- موات: الموت.

٥- منابع الربانية: أصول معرفة الله.

أما الناسُ الآن فهم يَطْرُدون ذِكْرَ هذا اليومِ عن نفوسهم...

﴿ وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدِۭۚ بَلۡ هُم بِلِقَآئِ رَبِّهِمۡ كَٰفِرُونَ ١٠ ﴾، وسيندمون غدًا على هذا الإلحاد[1]، ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلۡمُجۡرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ رَبَّنَآ أَبۡصَرۡنَا وَسَمِعۡنَا فَٱرۡجِعۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ١٢ ﴾، وهيهات، لقد انتهى أوانُ البَذْرِ، وجاء أوانُ الحصادِ.. ولن يُفلِح[2] إلا مَنْ قدَّم الإيمانَ والعملَ الصالحَ.

ومن خصائص أُمَّتِنا أنها تُقيم الصلواتِ سَحَابَةَ النهار[3] وبعضَ الليل، وأنَّ فيها مَن: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ يَدۡعُونَ رَبَّهُمۡ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ١٦ ﴾، إن الليلَ موطِنُ الجريمةِ والمُتَعِ الحرامِ في المدنيَّةِ الحديثةِ، ولا مكانَ للصلاة في أعمال النهار! فهل يستوي الفريقان؟

﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤۡمِنٗا كَمَن كَانَ فَاسِقٗاۚ لَّا يَسۡتَوُۥنَ ١٨ ﴾.

والنظام الإسلاميُّ للزمن يظهر في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا ١٠ وَجَعَلۡنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشٗا ١١ ﴾ [النبأ]، فلابد من راحة، ولا يجوز نسيان الله في الحالين، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا ﴾ [النساء: ١٠٣].

١- الإلحاد: إنكار وجود إله.

٢- يفلح: يفوز بالنعيم.

٣- سحابة النهار: طول اليوم.

ومشكلةُ البشرية الآن ليست تَرْكَ الصلاةِ فقط، بل رَسمَ الخُطط لإضاعتها[1] ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۝١٠ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ۝١١ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ۝١٢﴾ [العلق].

وقد وُجِهَ المسلمون قديمًا بجَمْهَرَةٍ من الماديِّين الغِلاظِ يحتقِرون العبادةَ ولا يتصوَّرون جَوَّها[2]، وهم اليومَ يواجهون الصَّنفَ نفسَه مستكبرًا برُقِيِّهِ الصناعيِّ وتفوُّقِهِ العسكري، ويجب علينا أن نصبر على هذه المواجهة، وندفع ثمنها...

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ۝٢٢﴾

ثم ذكَّر اللهُ نبيَّه محمدًا ﷺ بأن المرسَلين من قبله لقوا العَنَتَ[3] وتحملوا الشدائدَ، فلْيَصبِر كما صَبَروا...

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ۖ وَجَعَلْنَـٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۝٢٣ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يُوقِنُونَ ۝٢٤﴾.

والمعنى أنَّ القيادة لا تتمُّ لأهلِها[4] إلا إذا جمعوا بين الصبر واليقين. وهل كان إبراهيم إمامًا للناس إلا لأنه اخْتُبِرَ فنجح؟ ومَنْ طلب عظيمًا

١- إضاعتها: تبديدها وإزالتها.

٢- جوها: إطارها ودواخلها.

٣- العنت: المشقّة والغِلظة.

٤- أهلها: الأشخاص الصالحون للقيادة.

خاطر بعظيمته[1].

وقد قيل لنبيِّنا محمد ﷺ: إنه مُلاقٍ موسى حتمًا، فهل لَقِيَهُ بعدَ الموتِ أو لَقِيَهُ قبل ذلك ليلةَ الإسراء؟؟ لِيَكُنْ هذا أو ذاك.. فإنَّ موعِدَ اللقاء الجامع حقٌّ.

وقال ابن عاشور في تفسيره: إن اللقاء – هنا – الجهاد، وكأن الله يقول لنبيه: كما كابد[2] موسى كَيْدَ فرعونَ وعِوَجَ قَومِه، ستلقى ما لَقِي مِن خُصومك ومن قومك.. لكن العاقبة[3] للتقوى، والنصر للمؤمنين..

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

والواقع أن المسلمين في هذه الأيام يقع عليهم حيف[4] رهيب، ومَن يسمعُ مَآسِيهم في البلقان والهند تغلِبُه الحَسَراتُ[5] [وفي كثير من البلدان الأخرى كفلسطين وبورما وغيرها..]؛ لقد طُوِيتْ[6] أحكام القرآن وشعائره، وشرائعه أُهِيلَ[7] عليها الترابُ، والقِلَّةُ المكافحة تجد من

١- عظيمته: مكانته ومنزلته بين الناس.

٢- كابد: قاسى شِدَّتَه.

٣- العاقبة: الجزاء الأخير.

٤- حيف: ظلم شديد.

٥- الحسرات: الأحزان الشديدة والأسف.

٦- طويت: تم إخفاؤها وكتمها.

٧- أهيل: نُثِرَ.

خصومهـا الازدراء[1] والإهانة، ولكن الأمـل في الله باقٍ يحكم بين عباده بالحق.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

١- الازدراء: الاحتقار والاستخفاف.

من خواطر ومحاضرات
الدكتور محمد راتب النابلسي حفظه الله
في شرح سورة السجدة

﴿ الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢ ﴾

﴿ الٓمٓ ﴾: هـذه الحـروف التي بُدِئتْ بها بعضُ السُّـوَر، للمفسرين فيهـا اتجاهاتٌ عديدة في تفسـيرها، فقال بعضهم: الله أعلـم بمراده منها، والقـول الثاني: أن القرآن الكريـم إنما أُنْزِلَ بلغة العـرب، وهذه الحروف هي الأسـاس في هذه اللغة، ومن هذه الحروف أُنزل هذا القرآن، والقرآن تحدَّى العربَ أن يأتوا بسورة من مثله، بل تحدَّاهم أن يأتوا بأقل من ذلك.

نوضح هذا بمثلٍ:

هـل بإمكان الإنسـان أن يصنـع خليةً؟ الجواب – قطعًـا –: لا، إذًا لحكمةٍ أرادها الله عزَّ وجل، الموادُ الأولية التي خُلق منها الإنسـانُ وخُلق الحيـوانُ وخُلق النباتُ متوافرةٌ بين أيدي النـاس، ومع ذلك كلُّ الخلق لو اجتمعـوا لا يسـتطيعون أن يصنعوا ذبابةً واحـدة، ولا أقلَّ من ذلك، ولا تـزال الحياة سرًّا حتى الآن، قال تعـالى: ﴿ وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡـرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٨٥ ﴾ [الإسراء]. هـذا للإنسـان، وهو يَسري على جميع المخلوقات.

﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ ... ٢﴾

أي: إن الكتـابَ المنـزَّلَ عـلى النبي عليـه الصلاة والسـلام، المُعْجِزَ بنَظْمِهِ، المُتَعَبَّدَ بتلاوته، الذي نُقِل إلينا عن طريق التواتُر =هذا الكتابُ من رب العالمـين، البَشَرُ يُصيبُون، ويُخطِئون، يُبْدِعـون في جهة، ويُقصِّرون في جهةٍ أخرى، هذا شأن البشر، ولكنك إذا وَقَعَتْ عينُك على القرآن الكريم وجدته كتابًا من نوعٍ آخر، كتابًا تنزّل من خالق البشر؛ لذلك الله عزَّ وجل يقول:

﴿...لَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢﴾

أي: لا شـكَّ، ولا خَلَلَ، وأنت كلَّما قرأتَ هذا الكتاب ازددتَ يقينًا وثقـة بعلومه وأخباره، في حين أنه لا يوجد كتـابٌ كُتِب وأُلِّف إلا وظهر – مع مُضِيِّ الزمن – ما ينقض بعض فقراته، حتى الكتب الدينية التي هي في الأَوْج، لكن القرآن الكريم مَضى على نزوله ألفٌ وأربعمائة عام وتكفّل الله بحفظه، وكلَّما تقدَّم العلم أشواطًا طويلة اتجه نحو تأييد آياته.

والإنسـان إذا شـعر أن هذا الكلام – كلام الله – لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه فإنه سيستقيم معه، لكن متى يستقيم على أمر الله.

قال بعض علماء التوحيد كلمةً رائعةً، قال: «الإنسان لا يستقيم على أمـر الله إلا إذا أيقن بوجـوده، وأيقن بأنه يعلم، وأيقن بأنه سيُحاسِـب»، لـو أيقنت بوجوده وأيقنت بعلمـه، لكن يقينك باليوم الآخر ضعيف فلن تستقيم.

قال تعالى: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء:٨٨]، أي: لأن ربّ العالمين أنزل هذا الكتاب، والله عزَّ وجل لا يُعقل أن يخلق الإنسان ويدَعه بلا منهج ولا إرشاد، هذا بيان إلهي، الدولة إذا شقَّت طريقًا، تضع لك إشاراتٍ، هنا مُنعطف خطر، انتبه، هنا تقاطع خطر، أمامك تحويل، فهل تقبل أنت من وزير المواصلات أن يشق الطريق - وفي الطريق آلاف المفاجآت - دون إرشادات؟!

دُعاةُ الإلحاد، أو المشكِّكون في الدين، من أين يأتون بالشُّبُهات على الدين؟ يدَّعون أن هذا القرآن من عند محمد، وأنه كان ذكيًّا جدًّا، وكان عبقريًّا، وقد جمع العربَ حوله بهذا الكتاب، ولكن هذه مرحلة انقضت وانتهت!!

الحدُّ الفاصل بين الإيمان والكُفر أن تعتقد أن هذا القرآن من عند الله، منهجٌ دقيق لا ريب فيه، كلامُ خالق الكون، أُنزل لسعادة البشرية... قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة:٢].

فإذا كان لك رأيٌ في موضوع غضِّ البصر - مثلًا - وقلت: إنه صعب لأننا في زمن صعب... وكان لك رأيٌ آخرُ مغاير لكتاب الله في موضوع الربا، ولك رأيٌ في حجاب المرأة، ولك آراء مخالفة أخرى =فذلك يعني أنك ترتاب في هذا الكتاب، فلا تراه حكيمًا، ولا تراه صحيحًا، ولا تراه يُغَطِّي حاجات البَشَر الآن... القضيةُ ليس فيها حلٌّ وسط، ويجب عليك أن تأخذ موقفًا واضحًا صريحًا، وتقبَل كلامَ الله من كلِّ الأوجُه؛ إذ كيف

تؤمـن به وبيتـك غير إسـلامي؟! وعلاقاتك الاجتماعية غير إسـلامية؟! وكسـب المال وإنفاق المال غير إسـلامي؟! قَالَ رَسُـولُ اللهِ ﷺ: «مَا آمَنَ بِالْقُرْآنِ مَن اسْتَحَلَّ مَحَارِمَهُ». [رواه الترمذي عن صهيب].

رُبَّ تـالٍ للقرآنِ والقرآنُ منه بـراء، ويُقَبِّلُهُ، ويُعلِّقُهُ في غرفة النوم في إطـار من قماشٍ مطَرَّز، وهو يعـصي كلام الله عزَّ وجل، القضية أخطر من ذلـك، فقد أصبح القرآن عند بعض النـاس كتابًا يُتلى على الأموات فقط، فإذا سـمعوا القرآن تشـاءموا، ظنوا أن هناك ميِّتًا، هذا القرآن كلام الحياة، كلامٌ يُحيـي القلب، كلامٌ فيه منهجٌ للحياة؛ لذلك فبَيْنَ الإيمان والكفر: أن تعتقد أن في القرآن ريبًا، أو أنَّ ثَمَّة موضوعاتٍ لم يُعالجها، أو أغفَلَها... إذا كنت تملك هذا التفكير في كلام خالق الكون فالشـوط أمامك طويلٌ جدًّا للإيمان.

إذا قالَ لك رجلٌ: أنا طبيبٌ، ثم قال لك: ضغطُ الدَّمِ كلما ارتفع كان أحسـن.. فأين هو مِن الطِّبِّ؟! أو قال لك آخرُ: أنا مهندس، الإسـمنت لا يحتاج لحديد، الإسـمنت يتحمل قوة الشَّـدِّ.. فهـذا أدنى من أن يكون مجرَّد عامل؛ لأن أبسـط حقيقة في البناء أن الإسمنت يتحمل قوة الضغط، ولا يتحمل قوة الشـد، ويحتاج إلى حديـد يدعمه؛ فعليك أن ترفُض كلام هـؤلاء، وتدَعَهُم وشـأنهم، فكذلك لـو قيل لك: ليس لنا شـأنٌ في آيات القرآن، أو أن فيها تناقضات...

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۚ بَل هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ... ﴿٣﴾﴾

من معاني الحقّ: الشيء الثابت، فالقرآن الكريم هو الحق الثابت دائمًا، ومهما تبدَّلت العصور والأزمان، ومهما تقدَّم العلم، فإن هذا القرآن كلامُ خالقِ الكون، فيه قِيَمٌ سامية، وتعاليمُ سديدة...

إن الإنسان أحيانًا يمشي مع الباطل، يقضي شبابه، يُزْهِقُ حياتَه، ويكتشف بعد سبعين عامًا أن هذا المبدأ باطل، وأنَّ هذه الفكرة لا أصل لها، وأنها من صنع الأهواء والمصالح والأنانيَّات، وانتهى الأمر.. فالباطل هو الشيء المتغيّر.

أما إذا كنت مع الحق فليس هناك مفاجأة أبدًا، مهما تقدمت بك السِّنُّ، مهما قرأتَ، مهما اطَّلَعْتَ، لو سافرت، أينما شِئْتَ فلْتسافر، القُرآن شامخٌ كالطَّوْد، بل كلما رأيت انحرافَ البَشَرِ ازددتَ إيمانًا بأحقيَّة هذا القرآن...

﴿...مِن رَّبِّكَ ... ﴿٣﴾﴾

لم يقل: من الله، بل قال: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ الذي يربِّيك، المربي أرسل توجيهات، المربي أرسل هذا الخطاب، المربي أنزل هذا القرآن، انتبه يا إنسان!

انظر مثلًا إلى الأب، قد ترى لسانَه يُبْرَى من كثرة التنبيهات: يا ابني ادرُسْ، يا ابني كنْ صادقًا، يا ابني اضبط أمورك، هذه النفقة لا جدوى منها، تجد أن الأب بشكل عفوي وبدافع محبته لابنه، بدافع حِرْصِه على

مستقبله، بدافع تجربته الطويلة، بدافع معلوماته الغزيرة، دائمًا يُلقي على ابنه المواعظَ والتوجيهاتِ، والحِكَمَ والحقائق، هذه التربية..

ولأن اللهَ ربُّ العالمين، ربُّ هذا الإنسان، يوجهه - عن طريق القرآن - لئلَّا يضيع، لئلَّا يتوه، لئلَّا يضِلَّ فيهلِكَ نفسَه.

﴿...بَلۡ هُوَ ٱلۡحَقُّ...٣﴾

المعنى الثاني: وهناك معنى آخر للحق؛ وهو الشيء السامي العظيم، الهادف..

الإنسان إذا ترك اللهَ عزَّ وجلَّ، يصبح وحشًا كاسرًا، فيكثُرُ الفسادُ وتتفشَّى الفوضى، وتنعدم القيم.

ما تعريف الفساد؟ هو حركة إنسان مخيَّر بلا منهج؛ لأن كُلَّ شيءٍ في الدنيا مضبوطٌ بالحكمة والخير من عند الله وَفْقَ منهجِ الله تعالى، أمَّا الإنسان فمُخيّر، فإذا عرف الله عزّ وجل، وسار على هذا المنهج سعِدَ وأَسعدَ، وأصبحت الأرضُ صالحةً، وأما الفساد فهو إخراج الشيء عن صلاحه.

متى يَفْسُد الملحُ؟ يفسد إذا وضعتَه في الحلويات، فإنك حينها تخرجه عن صلاحه، أفسدت المِلح وأفسدت الحلويات، إذًا حركة الإنسان بلا منهج هي الفساد.

ما حار فيه البَشَرُ بَيَّنَهُ ربُّ البَشَرِ:

مِن أين يتشكل الجنين؟

البشرية اضطربت، وتساءَلَتْ: هل يتشكَّل الجنين من الحُوَين المنويِّ، بينما الرحم عبارةٌ عن أرض للاستنبات؟ هكذا اعتقد الناس سابقًا ولعشرات السنين، ثم بعدها اعتقدوا العكس: أن الجنين ينشأ من البويضة، وما الحوين المنوي إلا مُنبِّه، لكن الله عزّ وجل قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ﴾ [الحجرات: ١٣]، ﴿مِّن﴾ للتبعيض، من حوين وبويضة، ثم تاه البَشَرُ، يا ترى نوع الجنين [كونه ذكرًا أو أنثى] من الرجل أم من الأنثى؟ القرآن أشار: ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰ ٤٥ مِن نُّطۡفَةٍ إِذَا تُمۡنَىٰ﴾ [النجم]، الذي يُشَكِّل الذكر والأنثى هو النطفة لا البويضة، هذا كلام خالق الكون.

آيةٌ قرآنيةٌ أخرى تاه فيها البشر: ﴿مَرَجَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ يَلۡتَقِيَانِ ١٩ بَيۡنَهُمَا بَرۡزَخٞ لَّا يَبۡغِيَانِ ٢٠ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن]، البرزخ: الحد الفاصل، أين هذا البرزخ؟! بين البحر العربي والبحر الأحمر مضيقُ باب المندب، والماء فيه متصل، وبين المتوسط والأسود مضيق البوسفور، وبين المتوسط والمحيط الأطلسي مضيق جبل طارق، والناس قالوا: لا يوجد برزخ في تلك الأماكن كلها، إلى أن ركَّب الإنسان المركبة الفضائية، وصوَّر البحار من الجو؛ فظهرت في الصور خطوطٌ، بين كلِّ بحرَين خطٌّ، لا تزال طبيعة هذا الحاجز مجهولة، لكن آثاره واضحة: أن كلَّ بحرٍ له مكوِّناته، وله مُلوحته، وله حرارته، وله كثافته... وأن مياه البحر الأحمر لا يمكن أن تختلط بمياه المحيط الهندي، وأن مياه المتوسط لا يمكن أن تختلط بمياه البحر الأسود، وهكذا...

هكـذا القرآن، أنت مع كلام خالق البشر، فـلا أعتقد أن هناك كتابًا آخرَ ينبغي أن يسـتحوذ عليك، وأن تهتم بـه، وأن تُعْنَى بدقائقه، أن تُعْنَى بآياته، أن تُعْنَى بأمره ونهيه، أن تُعْنَى بوعده ووعيده، ببشارته وإنذاره =إلا القرآن الكريم...

﴿..لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣﴾﴾

القـوم هنـا هم هـؤلاء العرب الذيـن ما أتاهـم من نذيـرٍ من عهد إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام إلى عهد مُحمدٍ عليه الصلاة والسلام..

إذًا كلُّ مسـلم يجـب أن يكون موقفه واضحًا تمامًـا من هذا الكتاب الكريم، هل تؤمن أن هذا القرآن كلام الله؟ إن كنت كذلك فماذا سـتقول لربك إذا سألك: لماذا لم تنفِّذ هذا الأمر؟ لماذا قصَّرت في هذا الأمر؟...

قال تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ ...﴾ [النور:٣٠].

وقـال تعـالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً ۖ وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء:٣٢].

مثـال آخر في تطبيق أقـوال الله تعالى: ﴿...وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ [النسـاء:١٩]، اقرأ التفاسـير كُلَّها، المعاشرة بالمعـروف لا أن تمتنع عن إيقاع الأذى بزوجتك فحسـب، بل أن تحتمل الأذى منها، هكذا توجيه ربنا عزّ وجل، فيجب أن نقرأ القرآن بتدبُّر، بعناية.

إذا قـال لك الله عزَّ وجـلَّ: ﴿ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟ ﴾ [البقـرة:٢٧٦] فصدِّقْ وانتبه، فإذا تسـاهلت في هذا الموضوع وجمعت مالًا من الربا فقد يدمِّر الله مالَكَ كلَّه في ثانية واحدة..

والله عـز وجل يقـول: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾ [الحجـرات:١٢]، لو اغتبـت يتمزَّق المجتمـع.. تجد اليـوم الأُسَرَ كلَّها ممزَّقةً! فما السـبب؟ إنها الغيبة، يسـتقبل البعضُ ضيفَه اسـتقبالًا مع التَّرْحاب، فإذا غادر الضيفُ تكلمـوا عليـه، ويكون أحدٌ حـاضرًا فينقل الكلام إليه فـترى الحياة كلها ممزقـة من الغيبة، فإذا أردت أن تسـعد أنت وأهلـك وأولادك ومجتمعك وجيرانـك وإخوانك فطبِّق كلامَ الله.. إذا قـال لك: افعل، فافعل..، وإذا قال لك: لا تفعل، فلا تفعل...

لماذا أنت أيها المؤمن تتساهل أحيانًا في هذه الأمور؟! إذا كنت متيقِّنًا من أن هذا القرآن كلامُ الله فكيف تنسـجم مع نفسـك إذا خالفت أمره؟! ألا تشعر باختلال التوازن؟؟

أما إذا كان عندك شـكٌّ من أمره فإن هـذا موضوع آخر، لذلك فإنَّ هذا الموضوع يجب أن يكون محسـومًا لدى كل إنسان مسلم مؤمن..، هذه قضية مصيرية...

حينـما تخالِف كلامَ الله فمعنى ذلك أنك تشـعر مـن أعماقك أن هذا الكتـاب صعبٌ تنفيذُه، كأن الله كلَّفك ما لا تطيق، مع أن الله تعالى يقول: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة:٢٨٦].

فهذا الكتاب لا ريبَ فيه، لا يأتيه الباطلُ من بين يديه ولا من خلفه، كتـابٌ حكيم، كتابٌ حقٌّ... لكن الأخطر من هـذا كلِّه أنه من عند خالق السماوات والأرض، وكلما عَظُمَ المرسِلُ عظُمَت الرسالةُ.

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا ... ﴿٤﴾ ﴾

حتى هذه اللحظة لا يعرف أحدٌ حدودَ الكون، لا يزال الكون مجهولًا، بعض العلماء قالوا: «لا زلنا على شاطئ المعرفة»، فإذا كنا على شاطئ معرفة الكون فكيف بخالق الكون.

مجرة حديثة اكتُشفت بعيدة عن الأرض بعشرين ألف مليون سنة ضوئية! والضوء يقطع في الثانية الواحدة ما يزيد على ثلاثمائة ألف كيلو متر، كَم يقطع في الدقيقة الواحدة؟ وفي الساعة؟ وفي اليوم؟ وفي السنة؟ فما عرفنا بعدُ حدود الكون! ولا زلنا أطفالًا نحبو.. ففي هذا المنطق هل يمكن لجهةٍ أن تعبدَها غير خالق الكون؟؟

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ... ﴾ [سورة البقرة:٢١]، لعِظَم حقِّ الله عليكم، ولأنه الخبير، ولأنه العليم، ولأنه الرحيم، ولأنه القدير، ولأنه اللطيف، ولأن إليه المصير فالله عزَّ وجل وحده الذي يجب أن نعبده؛ لأنه هو الخالق، ونَوَّر الكون بهذا الكتاب، وجعله حجةً علينا إن قصَّرنا في تطبيقه، وحجةً لنا إن طبَّقناه..

﴿ ...فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ... ﴿٤﴾ ﴾

لا شك أن اليوم المذكور في هذه الآية ليس اليوم الذي نعرفه؛ لأن اليوم الذي نعرفه هو ناشئٌ من دورة الأرض حول نفسها، مع وجود الشمس، وقبل أن تُخلَق السماوات والأرض لم يكن هناك يومٌ بالمعنى الذي نعرفه، إذًا: لا شك أن هذه الأيام الستة ليست كأيامنا التي نحن فيها، إلا أنَّ بعض العلماء قالوا: «إنَّ هذه السماوات والأرض خُلِقَت في

حِقَبٍ ممتدة، طويلة»، فلو درستَ علم الجيولوجيا لقالوا لك: إن الأرض مرَّتْ في نشأتها بمرحلةٍ غازيةٍ، ثم مرحلة ملتهبة، فمرحلة متجمدة، ثم عصور مطيرة... فلعل هذه الأيام الستة هي مراحل طويلة تم خلالها خلق السماوات والأرض، وكأن الله عزَّ وجل هيَّأ للإنسان هذه الأرض، وجعل تهيئتها من خلال مجموعةٍ من الأيام التي هي في المعنى الدقيق حِقَبٌ طويلةٌ، تم فيها خلق السماوات والأرض.

وكل ما تقرؤونه في تاريخ الأرض، وعلوم الأرض، وعلوم الجُيولوجيا... إنما هو تفسيرٌ وتوضيحٌ وبيانٌ لمضمون هذه الآية الكريمة، وقد قال العلماء عن القرآن: «إن فيه أصولًا للعلوم الكونية»، أصولًا وليس فروعًا...

﴿...ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ...٤﴾

كلُّنا يعلَم أنَّ في القرآن الكريم آياتٍ متعلقةً بذات الله، مثلًا: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر:٢٢]، أين كان؟ وأين وصل؟ وهل ربنا يمشي؟ وهل له مكان يحويه؟ الله سبحانه وتعالى ليس بجسمٍ، ولا صورةٍ، ولا متجزِّئ، ولا مُتلوِّنٍ، وكلُّ ما خطر في بالك فالله بخلاف ذلك.. علم ما كان، وعلم ما يكون، وعلم ما لم يكن لو كان كيف كان يكون، لا يُسأل عنه بمتى؟ لأنه خالق الزمان، ولا بأين هو؟ لأنه خالق المكان.

وقد ورد أيضًا في آيات أخرى أن: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡ﴾ [الفتح: ١٠]، وقال رسول الله ﷺ: «إذا كانَ ثُلُثُ اللَّيلِ الأَخيرُ نَزَلَ ربُّكمْ إلى السماءِ الدُّنيا...» [رواه مسلم وأحمد]. هذه الآيات المتعلِّقة بذات الله عزَّ وجل ذهب

فيها العلماء أربعةَ مذاهب، مذهبان من مُعْتقد أهل السنة والجماعة، ومذهبان باطلان.

المذهب الأول التفويض:

أي: إن الآيات المتعلقة بذات الله نُفَوِّض تفسيرها إلى الله، وهذا أسلم مذهب؛ لأن المحدود لا يمكن أن يحيط باللامحدود، ولأن الحادث [الإنسان] لا يمكن أن يحيط بالموجود أزلاً، وما حدث قبل وجوده، ولأن المخلوق لا يمكن أن يحيط بالخالق.

وأنت في أعلى درجات العلم قل عن هذه الآيات: لا أدري.

المذهب الثاني: التأويل:

التأويل، ومعناه: التفسير (باطن اللفظ وبما لا يغير من تفسير رسول الله ﷺ)، وهو أن نُؤَوِّل، بما يليق بكمال الله، بما يليق بذات الله، بما يليق بمقام الأُلوهية والربوبية، ففي قوله تعالى: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡ﴾ [الفتح:١٠] فالعلماء يُؤَوِّلُون اليدَ بالقوة، أي: قوة الله فوقهم وأقوى.

وإذا قال تعالى: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَا﴾ [الطور:٤٨]، أي بعنايتنا، إلى ما هنالك..

المذهب الثالث والرابع: التجسيم والتعطيل:

هما مذهبان باطلان، فالتجسيم أي أن تُجَسِّم الذات الإلهية بأنه يأتي، وأن له يدًا، وأن له عينًا، وأن له سمعًا، هذا مذهبٌ باطل، لأنه قام على التجسيم، «فكل ما خطر في بالك فالله بخلاف ذلك».

وكذلك مذهب التعطيل باطل، وهو: أن تعطل آيات من كتاب الله، فلذلك هناك آياتٌ تُدركها بلا تفسير، فلا تحتاج إلى تفسير الزمخشري، ولا إلى تفسير الطبري، ولا إلى تفسير القرطبي، ولا إلى تفسير ابن كثير، ولا إلى مفسِّر حديث، أو قديم، مثـلًا لفهم قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا﴾ [التحريم:٨].

سُبُلُ فَهمِ الآياتِ:

١- فهم الآيات فهمًا عربيًّا:

هذه آيات محكمة واضحة اي التي لا تحمل إلا تفسيراً واحداً وتقام عليك الحجة بها، لست محتاجًا إلى أحد، لست مضطرًّا إلى أن تكون تبعًا لأحد في فهمها.

ومن فضل الله علينا أنَّ كلَّ الآيات التكليفية التي فيها افعل ولا تفعل محكمةٌ، هذه آيات نفهمها بالبداهة، كل ذي فكرٍ سليم، كل ذي إدراكٍ صحيح، كل ذي فطرةٍ نقيَّة يقرأ هذه الآية فيفهمها، هذه آياتٌ واضحةٌ بينةٌ لا خلاف فيها.

٢- تفسير الآيات بالنقل (عن رسول الله ﷺ):

هناك آيات من نوع آخر، بالنقل نعرفها، فإذا ورد عن النبي ﷺ حديثٌ صحيحٌ يفسِّر آيةٌ كريمة، فهذه الآية وإن بدت لنا غامضة لكن النقل الصحيح يُلقي عليها ضوءًا...

ومن الأمثلة على ذلك ما أخرجه الشيخان عن عدي بن حاتم رضي الله عنه قال: لما نزلت الآية: ﴿...حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلۡخَيۡطُ ٱلۡأَبۡيَضُ مِنَ ٱلۡخَيۡطِ

﴿ٱلْأَسْوَدِ...﴾ [البقرة:١٨٧] عمدتُ إلى عقال (حبل) أسود وإلى عقال أبيض فجعلتهما تحت وسادتي فجعلت أنظر في الليل فلا يستبين لي، فقفزت إلى رسول الله ﷺ فذكرت له ذلك، فقال: «إِنَّما ذلكَ سَوادُ اللَّيلِ وبَياضُ النَّهارِ» [أخرجه البخاري].

٣- تفسير الآيات بالعقل:

وهناك آياتٌ نفهمها بالعقل، فإذا قال الله عزَّ وجل: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾ [الإسراء:٢٣]، منطوق الآية ألَّا تقول لهما: أفٍّ، فإذا كان قول (أفٍّ) قد نُهيت عنه لأن فيه إيذاءً للأم أو للأب، إذًا أيُّ نوعٍ من أنواع الإيذاء منهيٌّ عنه بالعقل...

٤- طريق تفويض تفسير الآيات:

وهناك آيات - كما سبق وبيَّنَّا - لا نفهمها لا بالنقل ولا بالعقل، ولكن نفوِّض أمرها إلى الله عزَّ وجل، وهي آياتٌ قليلةٌ جدًّا، لا تزيد على عدد أصابع اليد، فنفوِّض تفسيرها إلى الله عزَّ وجل، ونحن في أعلى درجات العلم، هذا حجمك وأنت عبد، ألم تسمع قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء:٨٥]؟ ولو نظرت إلى السلف الصالح حينما كان أحدهم متواضعًا في نقل العلم، وفي تعليم العلم، لرأيت العجب العجاب..

تورُّع (تجنب وتعفف) السلف الصالح عن الإجابة بغير علم:

جاء وفدٌ من المغرب إلى الإمام مالك إمام دار الهجرة بثلاثين سؤالًا، طُرِحت عليه الأسئلة، أجاب عن سبعة عشر سؤالًا، وقال عن الباقي: لا أدري، قالوا: يا إمام، أنت إمام دار الهجرة، قصدناك من أطراف الدنيا،

بقينا أربعة أشهر نسير إليك، ثم تقول: لا أدري؟!! فقال بكل بساطة: قولوا لهم: الإمام مالك قال جوابًا لها: لا يدري.. نصف العلم لا أدري، هذا التنطُّع (الذي يخرج عن حد الإتزان) لمعرفة كل شيء هو دليل جهل، الذي قال: إنه يعرف كل شيء فهو لا يعرف شيئًا.

كلما رأى الإنسانُ عظمةَ الله عزَّ وجل صَغُرَ هو في عين نفسه، فالكِبْرُ من علامات الجُهَّال.

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ... ﴿٤﴾ ﴾

والمحصلة إذا أردنا أن نفوِّض نقول: الله وحده يعلم تفسير هذه الآية، وإذا أردنا أن نُؤوِّل نقول: بما يليق بكمال الله عزَّ وجل، وما يليق بمقام الربوبية، أو نقول - كما قال بعض المفسرين -: خَلَق الكون، ثم بَثَّ فيه الحياة، فهناك مرحلة الخلق، ومرحلة التدبير، ومرحلة التسيير..

﴿ ... ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ... ﴿٤﴾ ﴾

استوى استواءً يليق بكمال وجهه وعظيم سلطانه.. وقد ورد في بعض التفاسير أن الاستواء على العرش بعد أن خلق الله السماوات والأرض، وليس هذا ترتيبًا زمنيًّا؛ لأنه يستحيل على الله عزَّ وجل أن ينتقل وفق الزمن من مرحلة إلى مرحلة، ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس:٨٢]، وقال تعالى في آية أخرى: ﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ [طه]، يؤكِّد هذا المعنى أن أكثر الآيات التي ورد فيها الاستواء على العرش جاء بعدها: يُدَبِّر الأمر من السماء إلى الأرض..

﴿...مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾﴾

أي: إذا توهَّمتم أن أحدًا وليٌّ (من يتولى الشؤون) لكم من دون الله، وشفيعٌ لكم من دون الله، فهذا وهمٌ باطل، وشرك خفي، وعليكم أنْ تتيقَّنوا أنَّ أيَّ جهةٍ في الأرض لا تستطيع أن تفعل شيئًا إلا بمشيئة الله، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الزمر:٦٢]، وقال: ﴿مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا﴾ [الكهف:٢٦]، وقال: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [فاطر:٢]، وغيرها من الآيات كثيرٌ.

لو ذهبت تدعو ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ﴾ [الشعراء:٢١٣]

فأكبر باب من أبواب العذاب النفسي أن تدعو مع الله إلهًا آخر.

إذا ذهبت إلى بلاد شرقي آسيا رأيت الآلهة المتعددة، ميكادو إله في اليابان، بوذا إله في الصين مثلًا، هذه آلهة، هذا شرك جلي، النبي عليه الصلاة والسلام بعد أن فُتِحَت مكة، وبعد أن كُسِرت الأصنام، قال عليه الصلاة والسلام: «إِنَّ الشَّيطانَ يَئِسَ أَنْ يُعْبَدَ في أرضِكُمْ» [رواه الترمذي].

ليس في العالم الإسلامي مَن يقول: فلان إله، هذا انتهى وقته، لن يعود، لن ترجع عقارب الزمن إلى الوراء، ولكن الخطر كامنٌ في «الشرك الخفي»، فإذا توجَّهتَ إلى أحد من الناس، وظننتَ أنَّ زيدًا ينفعك أو يضرُّك، إذا ظننت أنَّ غضبَهُ كبيرٌ فأَرْضَيتَهُ بمعصية الله، فهذا أكبرُ أنواعِ الشرك، إنه الشِّرك الخفي.

إذا أدركـتَ وأنتَ موظَّفٌ في وزارة أنَّ هنـاك رجلًا قويًّا، بيده أمور كثيرة تتعلق بمصالحك، فإنك بشـكل غير شعوري تتجه إليه، تسترضيه، تقـدِّم له آيـات الولاء والوفاء، حفاظًا على سـلامتك، أو طمعًا فيما عنده، هذا في أحوال الدنيا، فما بالك إذا أيقنتَ أن أمرك كلَّه بيد الله، فماذا ينفعك أحد من الناس؟

يجب ألَّا ننسـى هذا الموقف: أحـدُ ولاةِ يزيدَ بن معاوية على البصرة جـاءه توجيهٌ من يزيد فيه مخالفةٌ لأمر الله عزّ وجل، فخاف الوالي على دينه وخاف على منصبه، فماذا يفعل؟ أيرضي يزيدَ أم يعصيه؟ وكان عنده الإمام الحسـن البصري، فقـال: يا إمام، مـاذا أفعل؟ انصحني؛ أنـا في حيرةٍ من أمـري، إن عصيتُه حصل كذا وكذا، وإن أرضيتُـه أغضبتُ اللهَ عزّ وجل! أجاب الإمام: «إن الله يمنعك من يزيد، ولكن يزيدَ لا يمنعك من الله».

إذا عصيتَ خالقَ الكونِ، وأطعتَ أحد من الناس، فإن هذا الإنسان لا يمنعك من قضاء الله، كل شيء في هذا الكون بيد الله سبحانه...

إذا تعلَّقت بزوجةٍ، وعصيـت خالق الكون، تأكَّدْ أن كل الشر يجب أن يأتي من هذه الزوجة التي أرضيتَها، وعصيتَ اللهَ عزَّ وجل من أجلها.

إذا كان للشـخصِ شريـكٌ جـرَّهُ إلى معصيـة الله، إنْ في الربا، أو في الغِشِّ... وهو يسايره، فإنه يكون قد عصى خالق الكون، وأرضى شريكه، هذا الذي أرضيتَه وعصيتَ اللهَ فيه، لا بدَّ أن يتخلَّى يومًا عنك، هذا تأديبُ الله لـك، الجهـة التي تُرَجِّي منها الخير، وترضيها على حسـاب طاعتك لله قد تكون هي التي سـتزعجك، هي التي سـتُقْلقك، هي التي ستكيد لك، ونبينا الكريم قال: «لَا طاعةَ لمخلوقٍ في معصيةِ الخالق» [رواه الترمذي].

ربنا عزّ وجل جعل في الدنيا قوانين مستنبَطة من التعامل اليومي، قد يأتيك أمر الله، وبحسب قوانين البشر سيصيبك ضررٌ كبير إذا أطعت الله! هكذا يتراءى لك، وإذا عصيت الله تيسرت أمورك، وحُلَّت مُشكِلاتُك، هنا يُمْتَحَنُ المؤمن، فإذا كنتَ مؤمنًا صادقًا تقول: والله لا أعصي الله، ولو أطبقت السماء على الأرض، فأنا أقول لكم: إن زوالَ الكون أهونُ على الله من أن يُخَيِّب مؤمنًا، أو من أن يضيِّع مؤمنًا..

ورد في الحديث الشريف: «مَا تَرَكَ عبدٌ شيئًا لله إلَّا عوَّضَهُ اللهُ خيرًا مِنهُ فِي دِينِهِ ودُنْياهُ» [رواه في الجامع الصغير].

أحد الإخوة أراد أن يشتري بيتًا، ومعه مبلغ لا يكفي لشراء هذا البيت، فتوجَّه ليأخذ مالًا بطريقةٍ غير مشروعة، هو لا يعلم أنها غير مشروعة، ولكن أخبره أحد الأشخاص أن هذا العمل غير مشروع، ومخالف لقواعد الدين، يقول هذا الأخ الكريم: والله دَمَعَت عيني، وقلت: يا رب، لا أعصيك، ولم تعُدْ لي رغبة في هذا البيت، خرج البيت من نفسه؛ لأن ثمنه كان معصيةً لله عزّ وجل، قال: فتوجَّهت إلى دكاني، فإذا صديقٌ ينتظرني، هذا الصديق قال: أنا عندي مبلغ من المال أتمنَّى أن تجعله وديعة لي عندك لسنتين، وأُناشدك الله أن تستعمله في هاتين السنتين! لمجرَّد أنْ نوى هذا المؤمن أن يَدَعَ شيئًا لا يُرضي الله، واستغنى عن البيت جاءه من يُسعفه، ويقدم له مالًا يستخدمه لحاجاته، فاقرأ الآية الكريمة:

﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية:٢١].

هذا هو الإيمان.. أن تُطيع الله عزّ وجل، ولو كان في طاعته - فيما

يبدو لك – خسارةٌ، وإذا علم اللهُ منك هذا العزم الأكيد عندئذٍ يؤتيك الدنيا والآخرة، فسعادة الإنسان أن يعرف الله، وأن يعرف منهجه ويعمل به...

وُجوبُ قَصْدِ الأشياءِ من طُرُقِها المشروعة:

لو أنَّ أمامك بابًا عظيمًا، هناك فرق بين أن تحاول فتحه عن طريق الهدم، أو المطارق، أو ... وبين أن يكون معك مفتاح صغير تفتحه به بسهولة وتدخل، إذا عرفت الله وعرفت منهجه، فهذا هو المفتاح.

الرِّزْقُ معروفٌ طُرُقُهُ: الأمانة والاستقامة...

الزوجة الصالحة كيف تحصل عليها؟ كن صالحًا يأتِكَ اللهُ بصالحة..

السعادة الزوجية لها أسباب.. إذا بُني الزواجُ على طاعة الله تولَّى الله التوفيقَ بين الزوجين، إذا بُني على معصية الله تولَّى الشيطان التفريق بينهما..

الرزق له باب، الزواج الناجح له باب، الرفعة (ارتفاع القدر والمنزلة) في المجتمع لها باب، الصحة لها باب، فإذا دخلت بطاعة الله يسر الله لك بعد ذلك كلَّ أمورك...

﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾ ﴾

التدبير: أن يُهيّئ تصرُّفًا إِثْرَ تصرفٍ، عملًا إِثْرَ عمل، فعلًا إِثْرَ فعل، وتدبَّر الشيءَ: تتبَّعه إلى نهايته، وهيَّأ له في كل موطنٍ تصرُّفًا، وفي كل مرحلةٍ سلوكًا، وفي كل درجةٍ علاجًا، فالتدبير – تقريبًا – يُشابه التربية، فالله المربِّي أي: المدبِّر.. هذا التدبير من السماء إلى الأرض..

الأمر: أمر العبـاد كافة، المؤمنين، وغيرِهم، أمرَ الأحياء، والجماداتِ وكلِّ شيء.. الله عزّ وجل هو الخالق، وهو المربِّي، وهو المسـيِّر، من معاني الخلـق أن الله عزّ وجل يُظْهِـر إلى الوجود ما كان غـير موجود، من معاني الربوبية أنه يتولَّى الجسـمَ فيربِّيه، والعقلَ فيربِّيه، والنفسَ فيربِّيها، والتربيةُ إمدادٌ ومعالجة، من معاني التسـيير أن كل حركةٍ وسـكنةٍ في الكون إنما هي بيد الله عزّ وجل.

فالتدبير: هو الرعاية، العناية، العلم، الإمداد، الإعطاء، المنع، الرفع، الخفض...

علماء التوحيد قالوا: إن أسـماء الله تعالى المزدوجـة لا يجوز أن تُذكَر واحـدًا دون الآخر، فلا تقول: الله ضارٌّ وتقف عندها؛ لأن الله تعالى قال: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الأعـراف:١٨٠]، بل ينبغـي أن نقول: الله ضارٌّ نافع؛ لأنـه يَـضُرُّ لينفَعَ، ويُـذِلُّ ليُعِزَّ، ويأخـذ ليعطي، ويمنعُ ليُعطـي، ويقبِضُ ليبسُطَ، فالأسماء المزدوجة تشير إلى أن الصفة الأولى في خدمة الثانية.

لا تغترّ بالحياة الدنيا:

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [يونس]، فالدنيا دار تكليـف، وهي مؤقتة، وأما التشريف فهناك في الآخرة، وهي دائمة، الدنيا دار عمل، والجزاء هناك في الآخرة..

إن هـذا الـذي يقصـد النعيم لذاته لم يعـرف الحياة، ومـا عرف أنها مرحلـة، ومـا عرف أنها ممرٌّ، وما عرف أنها دار عمـل، بل ظنَّها دار جزاء، ظنَّها دار استقرار...

هذا التدبير (للأمور) من السماء إلى الأرض..

ويعـرج إليه: يصعد الأمر ويرتفع إليه بعد تدبيره، والله عز وجل في السماء إله، وفي الإرض إله، والسماءُ رمزُ العُلوِّ، والأرض موطِنُ الإنسان، فأمْرُ الإنسان إلى الله عز وجل، والله يرى جميعَ البشَر في وقت واحد، ويدبِّر أمورَهم، الله مع كل الشـعوب.. مع رُوَّاد المسـاجد، ومـع رُوَّاد المقاهي، مـع المنحرفين، مع العُصاة، ومـع الأتقياء، هو مـع كلِّ المخلوقات، طبعًا هو معهم بعِلمه ومراقبته مطَّلع على أعمالهم، فيثبتُّهم على طاعته، ويسـوق لهم الشـدائد على معاصيه؛ لذلك فإن هذه الآية تبين عظمة الله عز وجل، وكيف أنَّ أمره أن يقول كُنْ فيكون، زُلْ فيزول...

قـال العلماء: وإذا أحـب اللهُ عبدَه عجَّل له بالعقوبـة في الدنيا، وإذا تابع اللهُ عزّ وجل نِعَمَهُ عليك وأنت في معصيته فاعلمْ أن هذا ليس إكرامًا، إنما هو استدراجٌ، إذا رأيت الله عز وجل كلما زَلَّتْ قَدَمُك لم ترَ شيئًا فاعلم أنك في دائرة الإهمال؛ فلذلك مما يطمئنك، مما يجبر خاطرك: أن الله سبحانه وتعالى لا ينسـاك من علاجه، معنى هذا أنت في دائرة المعالجة، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ﴾ [النساء:٢٧]، ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمۡ﴾ [هود:١١٩]، الله خلقك ليرحمك..

عليـك أن تعـرف أنك لو تبـتَ إلى الله فإن الله يفـرح بتوبتك، فماذا تنتظر؟ ما الذي يمنعك؟ قال تعالى: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ

﴿لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ..﴾ [الزمر: ٥٣]، هذه أرجى (أكثر أملاً) آيةٍ في القرآن الكريم، ثم يخاطب الله العُصاة الذين أسرفوا في المعصية، ليطمئنهم أن يعودوا إليه فيقبلهم، فقال تعالى: ﴿..إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر:٥٣]، ما دام القلب ينبض فإن باب التوبة مفتوح، كل شيء يُصحَّح، ولو امتدَّ بك العمر.

﴿ذَٰلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٦﴾﴾

ذلك هو الله تعالى، العزيز، القوي، الرؤوف الرحيم، شديد العقاب...

الغيب: هو كلُّ ما غاب عنك، والشهادة: ما شَهِدْتَهُ أمامَكَ أو أدركتَهُ في حياتك، فإذا أنت أمضيتَ حياتك في معرفةِ الله وطاعتِهِ فليس هذا كثيرًا، بل قليلٌ بالنسبة إلى نِعَمِ الله في الدنيا والآخرة.. ولكن الخسارةَ لإنسانٍ أفنى شبابه من أجل مخلوقٍ مثلِهِ في غير طاعة الله، فهذا سيشعر بالخسارة الكبرى في يوم الحساب...

﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾﴾

الصَّنْعةُ تدلُّ على الصانع، والنظام يدلُّ على المُنَظِّم، والكونُ يدلُّ على المكوِّن، والخَلْقُ يدلُّ على الخالق... فإذا أردت أن تعرف الله عزَّ وجل، فانظر إلى الكون..

أنْ يُخْلَقَ الكونُ مُصادفةً فهذا من سابع المستحيلات، وهذا تَنْفِيه كلُّ الأدلَّة العقلية، إذًا: هذا الكونُ له مُكوِّن.

فإذا تأمَّل الإنسان تأمُّلًا دقيقًا، وقال: هذا الكون خَلَقَهُ إلهٌ عظيم، لماذا خَلَقَهُ؟ وماذا يريد منِّي؟ وماذا بعد الموت؟

إذا كَوَّنَ الإنسانُ فكرةً صحيحةً عن حقيقة الكون، وعن حقيقة الحياة، وعن حقيقة الإنسان، وعرف إجابات هذه الأسئلة الثلاثة عندئذٍ يكون قد بدأ السير على طريق الإيمان.

الآية الكريمة في سورة الملك تقول: ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ [الملك:٣]، ففي الخَلْقِ إحكامٌ دقيق، وأيُّ شيءٍ خَلَقَهُ اللهُ تامٌّ في الخَلْق وفي الصفات، على مراد الله تعالى.

وقول ربنا عزَّ وجل: ﴿أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾، أي: إن مخلوقاتِهِ جميعًا (الإنسان، والحيوان، والنبات، والجماد...) كلٌّ منها قد أودع اللهُ فيه الخواصِّ التي يؤدِّي بها مُهمَّته أداءً كاملًا.

الإنسان أحيانًا بحاجة إلى معدن يتمدد عندما يبرُد، وهذه الخاصة في الرصاص، على عكس القانون العام للمعادن؛ لذا خلق اللهُ الرصاصَ، والإنسان بحاجة إلى معدن خفيف، وإلى معدن متين، وإلى معدن قاسٍ، فكل أنواع المعادن أعطاها الله خصائص معينة، لو درس الإنسان خصائص المعادن لشعر أن الله سبحانه وتعالى إنما خلقها على هذه الصفة تكريمًا وتسخيرًا له.

إذا أردتَ أن تكون واقعيًّا، وترى آياتِ الله عزَّ وجل بين يديك ماثلةً صارخةً واضحة ففكِّر في جسمك، فكِّر في رأسك، هذه الحواس، هذه العضلات، هذه الأعصاب، هذه الأوعية، هذه الشرايين، هذه الأعضاء،

هذه الأنسجة... يوجد نسيج لحمي، ونسيج عضلي، ونسيج عصبي، كلُّه يتلقَّى الغذاء من القلب.

فحركة اليد ما طبيعتها؟! كيف تتقلَّص العضلة؟ مَنْ يأمرُها؟ من ينفِّذ هذا الأمر؟ كيف يتلقَّى الدماغُ المعلوماتِ من المحيط الخارجي عن طريق الحواس؟ كلُّ شيءٍ له نظام خاصٌّ به.

﴿ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ﴾

الله عزَّ وجل خلق سيدَنا آدمَ من طين، ثُمَّ خلق منه زوجتَه، ثم جاء بنو البشَرِ من نسلهما معًا، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ...﴾ [النساء:١].

ماذا تعني كلمة (سُلالة)؟

بعضهم قال: السلالة تعني الخلاصة، أي: جعل نَسْلَ الإنسان من ماءٍ يُفرِزه الرجلُ [المنيُّ] فيه ملايين الحُوَينات، يتمُّ تصنيعه في ثمانية عشر يومًا، وهو مخزنٌ في الخصيتين، ولو أعطي الفاعلية لمات في مستودعاته، إذًا حينما ينطلق تُعطَى فاعليَّتُه، فإذا عاش ساعتين أو أكثر فقَدَ فاعليَّتَه ومات، إذا وصل إلى البويضة حوينٌ قويٌ، ولَقَّح البويضة تشكَّل الإنسان من هذه البويضة الملقحة.

قال تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [الإنسان:٢]، نطفة أمشاج، أي: مختلطة من (منيِّ الرجل)، و (بويضة المرأة)، وقد جعل الله البويضة كبيرةً لتكون هدفًا للحوين.

معنى (ماءٍ مهين) كما قال بعض المفسرين: هو الماء الضعيف، فأيُّ

عَرَضٍ يصيبه يجعل هذا الحوين ميتًا، فهو يحتاج إلى وَسَطٍ معيَّن، يحتاج إلى سيولة معيَّنة، إلى غذاء معين، هذا صنع من؟

(البروستاتا) تُغلِق مجرى البول حينما يخرج ماءُ الحياة، وتُغلِق مجرى ماء الحياة حينما يخرج البول، تفرز البروستاتا مادة مطهرة، وبعدها مادة معطِّرة، وبعدها مادة مغذية، وهذه الغدة تعمل ثمانين عامًا أو أكثر من دون كللٍ أو ملل، فإذا كان هناك إفراطٌ أو تفريطٌ تتضخم وتلتهب، هذا صنع من؟؟ صنع الله عز وجل، ولو أردت أن تقف عند خصائص الإنسان لوجدت العجب العجاب.

وقيل: (مهين) أي: له مِهنَةٌ، أو ماءٌ مُمْتَهن؛ فالإنسان يستحيي من هذا الماء إذا ظهر على ثوبه، وكُلُّنا من هذا الماء!

ولحكمةٍ أرادها الله عزَّ وجل فالإنسان يخرج من عورةٍ، ويدخل في عورةٍ، ثم يخرج من عورة، ويشكَّل من ماءٍ مهين، فعلامَ الكبر؟!

﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ...﴿٩﴾﴾

التسوية دقيقة جدًّا، معناها: التناسب، فمثلًا: الإنسان لو أراد أن يضع مركبته في موقف السيارات فيجب أن يكون حجمه أكبر بقليل من المركبة، وأعلى من حجمها، أطول بقليل، فلو لم تكن هناك تناسبات بين حجم هذا الموقف وحجم المركبة لما كان هذا المكان صالحًا لمبيت هذه السيارة.. التسوية هي التناسب، والإنسان جعل اللهُ له يدين، اليد من حيث طولها، ومن حيث مفاصلها، رسغها، ومن حيث الأصابع، وطولها، ومن حيث الكف، باطنه، وظاهره، هذه التجاعيد، وهذا المكان الذي لا شعر فيه، هذه كلها تسوية، فسبحان الله!!

بعد أن صار هذا الجنين كائنًا بشريًّا له رأسٌ، وله عينان، وله سمع، وله فم، وله لسان، وجهاز هضم، وجهاز دوران، وجهاز أعصاب، وجهاز إفراز، وجهاز تعرُّق، وعضلات وعظام:

﴿...وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ...﴿٩﴾﴾

أي دبَّت فيه الحياة، وتحرَّك، ونبض قلبه.

﴿...وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ﴿٩﴾﴾

السمع والأبصار والأفئدة كما قال بعض المفسرين: إنما هي حَواسُّ أودعها اللهُ في الإنسان ليتعرَّف بها إلى خالق الأكوان.

بالعين ترى آياتِ الله الدَّالةَ على عَظَمَتِه، وبالأذُن تستمع إلى كلام الله عزَّ وجل، وإلى سنَّة نَبيِّه، بالعين والفكر تَعْقِلُ، النقل عن طريق الأذن يحتاج إلى تدبر، والكون عن طريق العين يحتاج إلى تفكُّر، فمن خلال الكون تتعرف إلى الله عزَّ وجل، ومن خلال الأذن تتعرف إلى أمره ونهيه فتعبده.

السمع والبصر والفؤاد (وهو الفِكْر) هذه ثلاثة، حاسَّتان وجهازٌ مُعَقَّدٌ جدًّا، هذه الحواس مَناطُ التكليف، بالعين والفكر تتأمل في آيات الله التي بثَّها في الكون فَتَعْقِلُ، وبالأذن تتدبَّر أوامره ونواهيه فتعبُده، فلا بدَّ من اجتماع الفكر والبصر والسمع.

لكن تأمل ﴿قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ﴿٩﴾﴾، أي: ما تشكرون الله إلا شكراً قليلاً لا يوازي قدر النعمة.

إذًا هذا الكون سخَّره الله لك تسخير تعريف، وتسخير تكريم؛

فماذا ينبغي أن تفعل؟ لو نظرت قليلًا، ولو سمعت قليلًا ينبغي أن تؤمن، وينبغي أن تشكر، ولن تشكر قبل أن تؤمن، إذا آمنت شكرت، فإذا آمنت وشكرت فقد حققت المُراد الإلهي؛ لأن الله عزَّ وجل يقول: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ﴾ [النساء:١٤٧].

﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ... ﴿١٠﴾﴾

أي: إذا متنا، ودُفِنَّا تحت الأرض، وأصبحنا ترابًا، واختلط جسمُنا البالي بتراب الأرض، أيُعقَل بعد هذا أن نعود من جديد لنحاسَب؟!

﴿أَءِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍۢ ۚ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٠﴾﴾

يُنكِر الكفارُ والمُلحِدون أن يُخلَقَ الإنسانُ مرةً ثانية ليحاسب على أعماله كلِّها! مع أن الله سبحانه وتعالى من أسمائه: (الحق)، ومن الأدلة على اليوم الآخر أن الإنسانَ في الحياة قد يكونُ قويًّا، وقد يطغى في قوته، وقد يكون ضعيفًا فيُظلَم في ضَعْفِه، وقد يكون غنيًّا، وقد يكون فقيرًا، وقد يكون صحيحًا، وقد يكون مريضًا، ويأتي الموت عند هذه الأوضاع غير المتكافئة، ألا ينبغي أن تكون هناك حياةٌ أخرى تُسَوَّى فيها الحسابات، ويؤخذ من القوي للضعيف؟ ألا ينبغي أن يقيم الله عزَّ وجل حياةً أبديةً يجازي فيها المحسِن على إحسانه، والمسيء على إساءته؟ لذلك قالوا: وُزِّعت الحظوظُ في الدنيا توزيع ابتلاء (اختبار)، وسوف توزَّع في الآخرة توزيع جزاء.

الكفر نوعان: كفرٌ خَفِيٌّ وكفرٌ جَلِيٌّ، فإن لم تجد في عمل الإنسان اليوميِّ ما يؤكِّد إيمانَه باليوم الآخر فهو كافرٌ باليوم الآخر كُفرًا خفيًّا،

مثـلًا: لو أنَّك زُرْتَ طبيبًا، وعالجك علاجًا جيدًا، وكتب لك وصفة، وقد تشكره على عنايته بك، ولكن لمجرَّد أنك لا تشتري هذا الدواء فلست إذًا واثقًـا من علم هذا الطبيب، فعَدَمُ شراءِ الدواءِ تكذيبٌ لعِلْمه، ولو أثنَيتَ عليه، وكذلـك إذا قلت: أنا مؤمن بالجنة والنار، أنـا مؤمنٌ باليوم الآخر، ولم تعمـل لليوم الآخـر، ولم نجد في حركتك اليومية مـا يدل على خوفك مـن النار، ولا طمعك في الجنة، فنقول: إنك تكـذِّب باليوم الآخر تكذيبًا عمليًّا، لا تكذيبًا قوليًّا..

﴿... بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٠﴾﴾

لمجـرد أن تعمـل للدنيا فقط، لمجرد أن تأكل مـالًا حرامًا ليس لك، لمجـرَّد أن تتحرك بلا ضابـط وبلا منهج وبلا قِيَم، لمجـرَّد أنك لا تأتمر بما أَمَـرَ اللهُ، ولا تنتهي عمَّا نهى اللهُ، لمجرد أنك تعصي الله، ولا تنوي أن تتوب مـن هذه المعصية =فهذا يؤكِّد عدم إيمانك باليوم الآخر، ولو آمنت باليوم الآخر حقَّ الإيمان لاختلفتْ كلُّ علاقاتك اليومية، لاختلفت كل حياتك، لظهر هذا واضحًا في سـلوكك؛ ولذلـك فالذي يؤمن بالآخرة يقول لك: هـذه حرام لا أفعلها، إني أخـاف اللهَ ربَّ العالمين، أما الـذي يفعل كلَّ ما يشـتهي، ويتحرَّك كما يحلو له دون قيـدٍ ولا شرطٍ، ولا منهجٍ ولا ضابطٍ، فهذا ليس مؤمنًا باليوم الآخر إيمانًا حقيقيًّا.

ثَمَّـة نـوع من النـاس يشـكِّلون نموذجًا شـائعًا هذه الأيـام، وهذا النموذج هو إنسـان مسـلم بالانتماء، يحب أن يسـمع كلام الحقِّ، يحب أن يحضر مجالس علم، عنده عواطف إسلامية، لكنْ تجدُ أفكارَه في وادٍ وأعمالَه في وادٍ، هـذا النموذج لا يُجـدي، ولا تقوم عليه أمةٌ قوية، لا يقوم المجتمع

الإسلامي الصحيح إلا على أفراد مؤمنين متمسكين يقولون ويعملون بمبادئ الإسلام.

﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ...﴿١١﴾﴾

كل مخلوقٍ يموت، ولا يبقى إلا ذو العزة والجبروت، والليل مهما طال فلابدَّ من طلوع الفجر، والعمر مهما طال فلا بدَّ من نزول القبر.

ما منا واحدٌ إلا وهو يصدِّق بأن الموت حق، لكن الفرق بين المؤمن وغير المؤمن أن المؤمن يستعدُّ لهذا اليوم، بينما غير المؤمن يفاجئه ذلك اليوم، يأتيه على غير موعد، ويأتيه على غير استعداد؛ لذلك يُصْعَقُ الكافر حينما يأتيه ملك الموت، عندئذٍ يقول: ﴿...يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى﴾ [الفجر:٢٤]، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون]، والبرزخ: الحاجز.

﴿...ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾﴾

بعد البعث يوم القيامة تُرجَعون لتحاسبوا على أعمالكم كُلِّها، خيرها وشرها، جليلها وحقيرها، صالحها وطالحها، هذا معنى قوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة]. العمل مهما بدا لك صغيرًا فستحاسب عليه.

ثمَّ ينقُلنا ربُّنا عزّ وجل إلى مشهدٍ من مشاهد يوم القيامة:

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾﴾

أي: لـو شـاهدت يـا محمـد هـؤلاء المكذِّبـين، هـؤلاء المُعاندين، المسـتكبرين، المكذبين، لو شـاهدتهم يوم القيامة، وهم ناكسو رؤوسهم؛ خجـلًا، وخزيًا، وشـعورًا بالعـار.. إن العار ليلزمُ المرءَ يـوم القيامة حتى يقـول: يـا ربِّ، لَأَنْ تُرسـل بي إلى النار أهونُ عليَّ مما ألقـى، وإنه ليعلم ما فيها من شدة العذاب.

فهذا الذي يقول لك: أنا لا أصدق! أيُعقَل أن يكون الإنسـان ترابًا، ثم يُخلَق من جديد؟!! من الذي مات ورجع وقال: هناك دار آخرة؟!

هذه كلمات الجُهَّال، المُعاندين، الماديّين، هذه الكلمات التي يتبجحون بها في حياتهم، وفي أوج قوتهم، وصحتهم، وجبروتهم!

في الدنيا عصابات، وهذه العصابات قبل أن يُلقَى القبضُ عليها تجدُ أنَّ لها مظاهر القوة، فإذا أُلقي القبض عليهم جميعًا، وأودعوا في السـجن، وجاء من يصوِّرهم لتحقيقٍ صحفي =تراهم ناكِسِي رؤوسِهِم وأبصارهم في الأرض من الخِزْيِ والعارِ.

فالمعنى هكذا: ولو ترى يا محمد إذ المجرمون ناكسـو رؤوسـهم عند ربهم عند الحساب يقولون:

﴿رَبَّنَآ أَبۡصَرۡنَا وَسَمِعۡنَا ...١٢﴾

البطولـةُ أن تعرف الحق قبل فوات الأوان، وهؤلاء عرفوه لكن بعد انتهاء الفرصة!

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسـول الله ﷺ لرجلٍ وهو

يَعِظُهُ: «اغْتَنِمْ خَمْساً قبْلَ خَمْسٍ، حَياتَكَ قَبْلَ مَوْتِكَ، وَصِحَّتَكَ قَبْلَ سَقَمِكَ، وفَراغَكَ قَبْلَ شُغْلِكَ، وشَبابَكَ قَبْلَ هَرَمِكَ، وغِناكَ قَبْلَ فَقْرِكَ». [أخرجه الحاكم في المستدرك]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ سَبْعًا: هَلْ تَنْتَظِرُونَ إِلَّا فَقْرًا مُنْسِيًا، أَوْ غِنًى مُطْغِيًا، أَوْ مَرَضًا مُفْسِدًا، أَوْ هَرَمًا مُفَنِّدًا، أَوْ مَوْتًا مُجْهِزًا، أَوْ الدَّجَّالَ؛ فَشَرُّ غَائِبٍ يُنْتَظَرُ، أَوْ السَّاعَةَ؛ فَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ؟» [أخرجه الترمذي في سننه].

إن الإيمان ليس شيئًا يأتيك عفوَ الخاطر، ثم ينمو هكذا، وأنت لا تدري، لا.. الإيمان عملية واعية، عملية تفكُّر وبحث، عملية استماع وتَبَنٍّ، عملية عقل، فالإنسان إن لم يكن عنده وقتٌ ليؤمن لا يؤمن، وهذا الذي تستغرقه أعماله، هذا الذي ليس عنده وقتٌ ليحضر مجلس علم، ولا ليقرأ القرآن، ولا ليُصغي إلى موعظة، ولا إلى نصيحة ولا إلى عمل صالح هذا متى يؤمن؟! لابدَّ أن تخصِّصَ وقتًا من وقتك كي تؤمن وتقوِّي إيمانك، وحضورك مجالسَ العلم أو قراءة كتاب أو سماع محاضرة بأيِّ وسيلةِ تواصُلٍ هو مساهمةٌ منك في بناءِ إيمانك، استماعك إلى الحق مساهمةٌ في بناء إيمانك، تلاوتك القُرآنَ، وتدبُّرك له وعملك بمقتضاه هو مساهمةٌ في بناء إيمانك حيث ستحاسب نفسك وتعمل كما أمر الله أن تعمل..

﴿...فَٱرۡجِعۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ١٢﴾

ولكن هذا بعد فوات الأوان!! لذلك فالإنسان حينما يأتيه ملك الموت لا يندم إلا على شيءٍ واحد، هل رأيتم إنسانًا أدركه الموت فقال:

ربِّ ارجعـوني كي أُنهي هذه الصفقـة، ربِّ ارجعوني كي أنهي هذا البناء، يـا ربُّ بقيتْ له المرحلة الأخـيرة...؟ لا، هذا لا يُقـال، إذًا أنت في الدنيا خُلقت من أجل العمل الصالح، الذي تندم عليه حينما يأتيك ملك الموت هـو أهـم شيءٍ في الدنيا، إذًا العمل الصالح المبني عـلى إيمانٍ يقيني هو سرُّ وجـودك في الأرض، هـذا يؤكِّده قوله تعـالى: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ۝٣﴾ [العصر].

والآن سـنقف عند آيةٍ من أدَقِّ الآيات: ﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَأٓتَيۡنَا كُلَّ نَفۡسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ مِنِّي لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ۝١٣﴾

هناك مفهوم مغلوط للآية؛ فظاهرها - دون تبَصُّر ودون سؤال أهل الذكـر عنهـا - قد يُوهِمُ أن الله عزَّ وجل كان مـن الممكن أن يهدي الناس جميعًا، ولكنه لم يشأ ذلك.. حاشا لله تعالى.

لكن لهذه الآية معنىً أدقُّ وأبْعَدُ من ذلك، هو: أن الله سبحانه وتعالى خلق الإنسانَ، وأعطاه حريةَ الاختيار، أو ما يسمَّى حرية الكَسْبِ، أعطاه حريـةَ الاختيـار ليُثَمَّن عملُه؛ فعملُهُ الصالح لا قيمـة له إطلاقًا إن لم يكن مختارًا..

لو أن الله سـبحانه وتعالى أجبر عبادَه على الطاعة لبطل الثواب، ولَمَا ارتقـى الإنسـانُ عند الله عزَّ وجـل، لا قيمة للعمل الصالـح إلا إذا فعلتَه مختارًا، إذًا حرية الاختيار من أجل تثمين العمل، لو أن الله سبحانه وتعالى

أجبرك على الإيمان، أو أودع فيك فقط نداء العقل، ولم يضع فيك نداء الغريزة، لم يكن لديك إلا الخير.

إذًا بمجرد أن يُجْبِر اللهُ الناسَ على الهدى تسقط قيمة الهدى وتضيع ثمرته، فقد يسأل سائل: لماذا لم يجبرنا الله على طاعته وانتهى الأمر؟ قال تعالى:

﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا ... ﴿١٣﴾ ﴾

ولكن هذه الأعمال التي تفعلونها ليست من إجبار الله، والذي يقول: أنا شربت الخمر لأن الله قَدَّر عليَّ ذلك مخطئ في مقالته.

سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه حينما بَلَغَهُ خَبَرُ أحدِ الأشخاص الذين ضُبطوا متلبِّسين بشرب الخمر، وجاؤوا به إلى سيدنا عمر، وسأله: لم شربت الخمر؟ فقال: يا أمير المؤمنين، إن الله قدَّر عليَّ ذلك، فقال رضي الله عنه: أقيموا عليه الحدَّ مرتين، مرةً لأنه شرب الخمر، ومرةً لأنه افترى على الله، قال له: «يا هذا، ويحك! إن قضاء الله لم يُخْرِجْكَ من الاختيار إلى الاضطرار»، أي: أنت مُخيَّر..

فهذا الذي يعصي الله ويقول: الله قَدَّر عليَّ ذلك، والله أجبرني على معصيته، كلماتٌ يُردِّدها البعض، هذه كلماتٌ شيطانية لا أصل لها.. قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:٢٨]، وقال تعالى في آية أخرى: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ

﴿وَإِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَخۡرُصُونَ﴾ [الأنعام:١٤٨]، و الخَرصُ: الكذب، هذا إفك، وهذا افتراء.. أيُعقَل أن الله سبحانه وتعالى الذي خلقنا للهدى، وخلقنا للرحمة =يُجبِرنا على معصيته؟!! لذلك هذا الذي يقول: لو نظرت إلى العُصاة بعين الشريعة لعنَّفتَهم، ولو نظرتَ إليهم بعين الحقيقة لعَذَرْتَهم، هذا كلامٌ لا يقف على قدمين، هذا كلامٌ باطل..

لكن الهدى الاختياري أن تأتيه طائعًا، أن تأتيه مختارًا، أن تُقْبِل عليه وبإمكانك ألا تُقْبِل، وبإمكانك أن تُحْسِن أو لا تحسِن، أن تَغُضَّ بصرَك عن محارم الله، وبإمكانك أنْ تُطلِقَ البصر، أن تخاف من أن تأكل مالًا حرامًا، وبإمكانك أن تأكُله، الذي يرفعك عند الله، وهذا الذي يقربك منه، أن تأتيه مختارًا (للطاعة)...

لذلك هذه الأعمال التي تفعلونها هي مِنْ كَسْبِكم واختياركم، وسوف تحاسبون عليها...

﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَأٓتَيۡنَا كُلَّ نَفۡسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ مِنِّي لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ١٣﴾

في القرآن آياتٌ مُحْكَماتٌ، وهي كثيرةٌ جدًّا، بل هي أكثر ما في القرآن، وفي القرآن بعض الآيات المتشابهات، التي إذا قرأتَها دون علمٍ، ودون نورٍ، ودون خبرةٍ، أو تدَبُّرٍ، أو سؤالٍ، أو استنارةٍ فقد تقع في سوء ظنٍّ بالله عزَّ وجل، قال تعالى: ﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [النحل:٤٣].

وهذه الآية من المتشابهات التي لا ينبغي أن تُؤخَذَ هكذا على ظاهرها دون تدبُّر وفهم، أيعقل مثلًا أن الله بنى سجنًا، ويجب أن يملأه، ويأخذ

الناس مطيعهم وعاصيهم لملء السجن.. حاشا لله!! لا يعقل، لا يستقيم هذا الكلام أبدًا، بل المعنى: أنه لو شئنا أن نجبركم على عمل قصري كما تدَّعون لما أجبرناكم إلا على الهدى..، والهدى القصري لا يستفيد منه الإنسان شيئًا...

معنى حق القول مني: أي وجب العذاب مني لأهل المعاصي والكفر بالله منهم، المقصود من الجِنَّة والناس أجمعين: جميع أهل الكفر والإلحاد من الجِنِّ والإنس الذين باختيارهم هم وَحْدَهُم لم يستفيدوا من الهدى الذي أرسله الله لهم، ولم يتفكَّروا ويتدبروا، بل جحدوا وكفروا وأساؤوا...

هذه الآية يجب أن تُفهم على هذا النحو الذي يليق بحضرة الله عزّ وجل، يليق بأسمائه الحسنى وصفاته الفُضلى..

﴿فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾

لو لاحظنا الناس الآن، عامة الناس يحسبون حسابًا لكل شيء، إلا اليوم الآخر، فيخططون لكل شيء، إلا ساعة وقوفهم بين يدي ربهم، يأخذون الأموال بلا تحفُّظ، يَعُدُّون أخذ المال الحرام ذكاءً وحِنكةً وحيويةً، وهؤلاء الذين نسوا لقاء يومهم هذا هم الأغبياء، هم الأشقياء الذين سوف يدفعون ثمن إغفالهم - أو غفلتهم - ثمنًا باهظًا.

هناك حديث شريف قد يُفهَم على أنه مُناقِضٌ لهذه الآية! عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللهُ بِكُمْ وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ، فَيَسْتَغْفِرُونَ اللهَ، فَيَغْفِرُ لَهُمْ»

[رواه مسلم]، معناه: لو لم تُحِسُّوا بذنبكم؛ لأن المؤمنَ ذَنْبُهُ كالجبل الجاثم على صدره، والمنافق ذَنْبُهُ – عنده – كالذبابة، فحينما لا تُحِسُّون بذنوبكم فمعنى ذلك أنكم هَلْكَى، يوشك أن يذهب اللهُ بكم، أما إذا أذنب المؤمنُ فاستغفر وبكى وصحَّح وَضْعَهُ فمعنى ذلك أن قلبَه حيٌّ..

لن يستقيمَ الإنسانُ على أمْرِ الله إلا إذا آمن بوجوده، وآمن بأنه يعلم، وأنه سبحانه لا تَخْفى عليه خافيةٌ، وآمن بحَتْمِيَّة الحساب، إذا تحقَّقتَ من هذه الحقائق الثلاثِ فمِنَ النتائج الطبيعية والحَتْمِيَّةِ أنْ تستقيم على أمر الله، إذًا حاوِلْ أن تؤمن بوجوده إيمانًا حقيقيًّا لا إيمانًا ساذَجًا، أو إيمانَ تَبَرُّكٍ، بل لِيَكُنْ ظاهرًا في سلوكك؟ تقول: هذه لا أفعلها؛ إني أخاف الله رب العالمين، هذا هو المراد، والله أعلم..

سمكات ثلاث، قِصَّة وعِبْرة:

صيَّادان مرَّا بغَدِيرِ سمكٍ فيه سمكاتٌ ثلاث، الأُولى كَيِّسَةٌ جدًّا، أي: الأرجح عقلًا، والثانية كَيِّسَةٌ، أي: عاقلة، والثالثة العاجزة، فرأى الصيادان ما في الغدير من السَّمَك، فتواعدا أنْ يرجِعا في اليوم التالي ومعهما شباكهما ليصيدا ما في الغدير من السمك..

سمعت السمكات قولهما، أما أَكْيَسُهنَّ فإنها ارتابتْ، وتخوَّفتْ، وقالت: العاقل يحتاط للأمور قبل وقوعها.

فهذه السمكة العاقلة جدًّا قبل أن يعود الصيادان أصبحت خارج الغدير، وارتاحت أعصابها، وأما العاقلة فمكثتْ قُرْبَ النهر حتى تهربَ إذا عاد الصيادان، هذه تعيش وقتها، فُوجِئتْ برجوع الصيادَين ومعهما

الشبكة، فذهبت لتخرجَ من حيث خرجت رفيقتُها، فإذا بالمكان قد سُدَّ، فقالت: هذه عاقبة التفريط.. هذا جزاء عملي.. غير أن العاقل لا يستسلم؛ بلْ يفكِّر في وسيلةٍ للنجاة، فتظاهرت أنها ميتةٌ، فطَفَتْ على وجه الماء، فأخذَها أحدُ الصيادَين.. ووضعها على الأرض بين النهر والغدير، فوثبت في النهر فنَجَتْ، لكن هذه غامرتْ، كان من الممكِنِ ألَّا تنجو، فلو وضعها في مكانٍ بعيد لماتت.. وأما العاجزة التي انتظرتْ اليوم التالي فلم تَزَلْ في إقبالٍ وإدبارٍ حتى صِيدَتْ، إذًا العاجز دائمًا يعيش ماضيه أولًا، ويستهلك وقته استهلاكًا رخيصًا، فيأتيه الموت فجأةً، وهو ليس مستعدًّا له.

المؤمن العاقل يحتاط لليوم الآخِرِ قبل مَجِيئِهِ، يحتاط للموت قبل نزوله، يحتاط للشيخوخة قبل أن يصل إليها، يستقيم في شبابه.. «مَنْ عاش تقيًّا، عاش قويًّا»، «مَن تعلَّم القرآنَ متَّعه اللهُ بعقله حتى يموت»، المؤمن يَشيخُ جسمُهُ، وتبقى نفسُهُ شابَّةً بمعرفة الله عزّ وجل.. العاقل يعيش المستقبلَ دائمًا، وهو في شبابه يعيش ساعة الموت، كيف سأُحاسَب؟ والأقلُّ عقلًا يعيش الحاضر، يُفاجَأ يومًا بما يأخذ تدابيره، لكن قد ينجح، أو قد لا ينجح، والغبي يعيش الماضي، يقول: كنتُ وكنتُ، حينما يأتيه الموت يفقد كلَّ شيءٍ، ويدفَعُ ثمنَ كلِّ شيء، ويُحاسَب عن كلِّ شيء.. قال تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [الحجر].

فلذلك نَقَلَنا ربُّنا عزّ وجل إلى مشهد من مشاهد يوم القيامة، قال لنا:

﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾﴾

الحقيقة أنَّ طريقَ الإيمانِ بالله هو الإيمانُ بآياته [الكونية، والتكوينية،

والقرآنيـة]؛ لأن الله سـبحانه وتعالى لا تُدرِكه الأبصـار، ولكنْ تعرفه مِنْ خلال خَلْقِه، فالإيمان بآياته طريقٌ إلى الإيمان به، وكيف تؤمن بآياته؟؟

إذا ذُكِّر الإنسان بآيات الله خرَّ ساجدًا، والسجود له معنيان: سجودُ اضطرار، وسجود عبادة.

١- سجود الاضطرار:

أيُّ مخلوقٍ على وجه الأرض [حتى الكفار] شـاء أم أبى سيسجد لله سجودَ اضطرار، أنت مفتقرٌ إلى الهواء، مضطرٌ إليه، مفتقرٌ إلى الماء، مضطرٌ إليه، ولو أن الله سـبحانه وتعالى منع عنك الهواء لانتهت حياتُك، ولو منع المـاءَ الـذي يحتاجـه كل شيءٍ في كل شيء لهلـك كلُّ شيء، مادام كل شيء يحتاجه في كل شيء، إذًا الخَلْقُ كلُّهم ساجدون لله عزَّ وجل سجود اضطرارٍ وافتقارٍ وحاجة، هذا السجود لا تعنيه هذه الآية..

٢- سجود العبادة:

ولكـن السـجود الذي تُؤجَـرُ عليه هو السـجود الـذي يَرقَى بك، السـجودُ الذي يجعلك في الآخرة من المقرَّبين، أنْ تأتيَه طَوْعًا لا كَرْهًا، أن تأتيَـه مُختارًا لا مُجْبرًا، أن تأتيَه بمَحْضِ إرادتـك، أن تأتيَه مُحبًّا راغبًا؛ لذلك فالمؤمنون هم الذين إذا ذُكِّروا بآيات ربهم خَرُّوا سُجَّدًا..

﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا ...﴿١٥﴾﴾

قد تَنـالُ درجةَ الدكتُوراه في العلوم الطبيعية، وكلَّما قرأتَ شـيئًا من آيات الله الدالَّةِ على عَظَمَتِه لم تَسْجُدْ، لأنك رأيتَ أنَّ هذه الظواهرَ ظواهرُ طبيعيـةٌ تحكمها قوانين، فأنت مع أنك قرأتَ هذه الآيات، وتبحَّرت فيها،

لكـنْ لم تَعْـبُرْ بها إلى الله عزَّ وجل، لم تُوَظِّفهـا في معرفة الله، فهذه المطالعة، وهذه الدراسة لا قيمة لها؛ فالكون جسرٌ يجب أن تَعْبُرَ عليه إلى معرفة الله، فإذا بقيتَ على الجسر لم تستفدْ من هذا العلم شيئًا، فأنت في خطر؛ لأن الله تعالى قال: ﴿إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ...﴿١٥﴾﴾

ملاحظة: عند قراءة هذه الآية يستحّب السجود لله تعالى وتسبيحه [سبحان ربّي الأعلى]، وعند بعض المذاهب سجود التلاوة واجب.

﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَـٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾ [الذاريات:٢٠]، في الجسد آيات، في الطعام والشراب آيات، في البحار، في السماء، الشمس، القمر، النجوم، في الأسماك، في الطيور والأشجار والنبات آياتٌ، أقربُ آيةٍ إليك نفسُك التي بين جَنْبَيكَ، جسدُك، أعضاؤك، حواسُّك، أجهزتك، أنسِجَتُك، طِباعك، نظام حياتك، زواجك، إنجابك، هذه كلها تحت سمعك وبصرك؛ لذلك فعلامة المؤمنِ الصادق أنه إذا اطَّلع على آيةٍ من آيات الله الدالة على عظمته، إذا قرأ عن آيةٍ من آيات الله، إذا سمع آيةً من آيات الله خرَّ لله ساجدًا سجودَ عبادةٍ وشكرٍ؛ ولذلك تُعدُّ آيات الله التي بثَّها في الكون أقربَ طريقٍ وأوسع باب لتصل إلى معرفة الله، يقول الله عزَّ وجل: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَـَٔايَـٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا سُبْحَـٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران].. أي أن التأمُّل في خلق السماوات والأرض عبادة.

يجب أن يكون لكلٍّ منَّا جَلْسةُ تأمُّلٍ وتَفكُّرٍ، هذا الذي فعله النبيُّ صلى الله عليه وسلم في غار حراء، هذه جلساتُ التأمُّل في آيات الكون،

جلساتٌ لا بدَّ منها، يمكن أن تفعلها كل يوم لوقتٍ قصير، يمكن أن تنظر وتفكِّر في أيِّ شيءٍ حولك؛ لأن الله يأمرك بذلك، قال تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ﴾ [عبس:٢٤]، ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ﴾ [الطارق]، ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [يونس:١٠١]، ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ [الغاشية:١٧].

أنْ تـرَى – من خلال الكون – قُدرةَ الله، عِلمَ الله، رحمةَ الله، ولُطْفَ الله... هذا نوع من العبـادة، إذًا هناك دعوةٌ واضحةٌ، جَليَّةٌ متكررةٌ، مركَّزٌ عليها في القرآن الكريم إلى التأمُّل في الكون، فالتفكُّر عبادة.

﴿وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ...۝١٥﴾

التسـبيحُ بكلِّ معانيه هو بحَمْد الله.. و (التسـبيح) مِنْ فِعْل سـبَّح، والتسـبيح بالتعريف الدقيق: هو تنزيه الله عزَّ وجل عنْ كلِّ ما لا يليقُ به، وأن تنفـي عنه كلَّ صفـاتِ النَّقْصِ، وأن تُثبِتَ لـه كلَّ صفاتِ الكمال، أن تقول: سـبحانه وتعالى عمَّا يقولون عُلُوًّا كبيرًا، وأن تقول: ما أَرْحَمَ اللهَ عزَّ وجل، ما أَحْكَمَهُ، ما أَقْواه، ما أغناه... أن تجولَ في أسمائه الحسنى وصفاته الفُضـلى، وتنزِّهه عـن كل ما لا يليق به، هذا هو تسـبيح هـؤلاء المؤمنين الصادقين إذا عاينوا آيةً من آيات الله.

﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۝١٥﴾

المُستكبِرُ مَنْ إذا رأى أمرًا إلهيًّا قال: أنا غير قانع بوجود يوم آخِر! أي يوم القيامة والحشر والحساب الأمر لا يتناسب مع هذا الزمان! ماذا أفعل بكذا؟ موقفه متردد! يشـعر بالاسـتعلاء، لا يطبِّق الأمر إلا إذا انجلت له

حكمتُه، كأنه يناقش خالقَه نِدًّا لِندٍّ، هذا هو الاستكبار، ولاحول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، فالحذرَ كلَّ الحذرِ منه...

﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ ... ﴿١٦﴾ ﴾

تتجافى: تبتعد، والمضاجِع: الأَسِرَّةُ الوَثيرة، الفُرُش الأنيقة، المِلاءات النظيفة، الجو الهادئ، التبريد، غرفة النوم تدعو الأجساد إلى الراحة، تدعوها إلى الاسترخاء، لكنَّ هؤلاء المؤمنين الصادقين يقومون من فراشهم في الليل ليُصَلُّوا لله عز وجل...

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِذَا مَضَى ثُلُثُ اللَّيْلِ - أَوْ نِصْفُ اللَّيْلِ - نَزَلَ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا جَلَّ وَعَزَّ فَقَالَ: هَلْ مِنْ سَائِلٍ فَأُعْطِيَهُ؟ هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ فَأَغْفِرَ لَهُ؟ هَلْ مِنْ تَائِبٍ فَأَتُوبَ عَلَيْهِ؟ هَلْ مِنْ دَاعٍ فَأُجِيبَهُ؟» [رواه أحمد].

ربُّ العالمين جل جلاله يسألك في هذا الوقت: ألك عندي حاجةٌ يا عبدي؟ أتريد مني شيئًا؟ أتحب أن أغفر لك ذنوبك؟ أتحب أن أتوب عليك؟ أتحب أن أعطيك سُؤلك...

يصلُّون صلاةَ العشاء، وصلاةَ الوتر، وقد يُصلُّون قبل النوم ركعتين، وقد يصلون بعد الاستيقاظ قبل الفجر، يصلون آناء الليل وأطراف النهار، يتوجهون إلى الله بالدعاء، يناجونه، يبتهلون إليه، هذه العلاقة الطيبة مع الله عزَّ وجل هي سرُّ الدين، أساس الدين هذه الصِّلَة، وهذه المُناجاة، وهذا الدعاء، الدعاءُ مخُّ العبادة، فهل يرضى المؤمن أن ينام نومًا عميقًا وأن ينسى ساعات السحر؟!

في القرآن آية إذا قرأها المؤمن قراءةً صحيحة يجب أن يقشعِرَّ جِلدُهُ، وهي قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الحديد:١٦]

إلى متى أنتَ باللَّذَّاتِ مشغولُ وأنت عن كلِّ ما قدمْتَ مَسؤُولُ

إلى متى يا هذا أنت شارد؟ إلى متى أنت في غفلة؟ إلى متى أنت في جفوة؟ إلى متى أنت في فتور؟ ألا تشتاق إلى الله عزَّ وجل الذي أنعم عليك بنعمة الإيجاد، ونعمة الإمداد، ونعمة الإرشاد؟ أنزل على نبيِّه هذا الكتاب منهجًا لك، دستورًا مُرشِدًا لك، خلقك لجنةٍ عرضها السماوات والأرض.. هذا معنى:

﴿... يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾﴾

قد يتنعَّم الإنسان، وهذا مباح إذا كان من حلال.. أما أنْ يجعل النعيمَ قَصْدَهُ الأساسَ، وشُغْلَهُ الشاغِلَ، ومَحَطَّ رِحَالِه، ومُنْتَهى آماله، ولا يفعل شيئًا مما يرضي اللهَ عزَّ وجل فهؤلاء وَصَفَهُم اللهُ بأنهم غافلون (كالأنعام)، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ﴾ [يونس:٧]، خالق الكون يقول لك: متاعٌ قليل، ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ [القصص]، فلا يرتاح كثيرًا للنعيم في الدنيا، فهو نعيم مؤقَّت، والله يريد لك أن تتمتع بالحياة، ولكن ضمن نطاق المباحات.

إذا اشتدَّ الخوفُ عمَّ اليأسُ، وإذا اشتدَّ الرجاءُ عمَّ التساهلُ، فربُّنا

حكيـمٌ، وهو المربِّي، فـإذا رآك ازداد أَمَلُـكَ ورجاؤكَ، وفَـتَرَتْ عِبادتُك، وقلَّـت طاعتُك يُخيفك، فإذا اشـتدَّ خوفُك، وانتقلـتَ من خوفٍ إلى يأسٍ يُطَمْئنـك، فالمؤمن العاقـل يراوح بين الخوف والرجـاء، ليس مع الخوف القاتـل، ولا مـع الرجاء السـاذج.. والمؤمن يطمع دائمًا برحمـة الله وكرمه ونصره ومغفرته...

ثُـمَّ إنَّ العطاء إسـتراتيجية المؤمن، وهي سـمةٌ أساسـية في طبيعته، يعطي مـن عِلْمه، يعطـي من خِبرته، يعطـي من ماله، يعطـي من جاهه، يعطـي من قوَّته، يعطي من ذكائه، يعطي من كلِّ ما يملك، أسـاسُ حياته العطاءُ، إذا أردتَ أن تعرفَ أَمِنْ أهلِ الدنيا أنت أم من أهل الآخرة؟ فانظرْ مـا الذي يُفْرِحُكَ؟ إذا كان يفرحك أن تعطي فأنت من أهل الآخرة، وإذا كان يفرحك أن تأخذ فأنت من أهل الدنيا، قال تعالى عن هؤلاء المؤمنين:

﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾

للإنسـان دائرةُ مرئيَّاتٍ محـدودة؛ تعرِفُ بلدَكَ، وكـذا المُدُنَ التي في بلدك، لكن دائرة مسـموعاتك واسـعة جدًّا، في الأخبار تسـمع عن البلد الفلاني، والعاصمة الفلانية...إلخ

أما الخواطر فأوسَـعُ وأوسـع، قد يخطُـر في بالك إنسـانٌ طُوله كذا مترًا.. هذا خاطر، وكذلك فالمؤمن يتخيّل الجنة دائمًا، ويسأل اللهَ الفردوسَ الأعلى منها.

وفي الحديـث القدسي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُـولُ اللهِ ﷺ: قَـالَ اللهُ: «أَعْدَدْتُ لِعِبَـادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَـيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَـمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ، فَاقْرَؤوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا

أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾» [متفق عليه].

هـذه الجنة التـي عَرْضُها السـماواتُ والأرضُ، التـي لا تعلم نفسٌ مـا أخفي لها في هذه الجنة مـن قُرَّة أعينٍ جزاءً بما كانـوا يعملون من أنواع العبادات المختلفة، هل هذه الجنة يُسـتغنى عنها؟ ثم بعد ذلك نلهث وراءَ سنواتٍ معدودة مشحونةٍ بالهموم والأحزان!! لهذا يقول الله عزّ وجل:

﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾ ﴾

خالـق الكـون يقـول: لا يسـتوون، وقـال في آية أخـرى: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [القلـم]، رجـلٌ مؤمـنٌ يعرف الله، يعـرف ما يُرضيه، وما يُغضبه، يعرف أمـرَهُ ونَهْيَه، يعرف الحلالَ والحرام، وهو على المنهج سـائرٌ ومُطبِّق، يرجو رحمة ربه، ويخشى عذابه، يأمر بفعل الصالحات، ويخشـى فعل السـيئات، أيكون هذا المؤمن كالفاسق الشارد التَّائِـه الذي يعبث، يأكل ما يشـاء، يلتقي مع من يشـاء، يقبض المال كيفما يشاء، يكذب ما يشاء، أيكون كهذا المؤمن..كلا!!! ليس هناك نسبةٌ تجمع بينهـما، فاطمئن إذا كنت مؤمنًـا صادقًا وَفْقَ المقاييس التـي أرادها الله عزّ وجل؛ فأنت مَلِكٌ من ملوك الدنيا.

﴿ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ ﴾

ليـس للمؤمنين العاملين في الدنيا جَنَّـةٌ واحدة في الحياة الآخرة، بل جنـات تأوي إليهـا النفس، لك أن تتخيّل! ليس فيها تَقدُّمٌ في السِّـنِّ، ولا أمـراضٌ تصيب القلبَ، ولا فقـر، ولا أولاد جاحدون، ولا شريك لئيم،

ولا مشكلة في الدخل، ولا تجارة كاسدة، كل هذه الهموم الأرضية لا وجود لها في الآخرة؛ قال تعالى: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق:٣٥].

الحياة الآخرة أساسُها أنَّك في دار تكريم، وأرقى أنواع التكريم أنْ تنال كلَّ شيء، ما يخطُر في بالك شيء إلا تراه أمامك، أما الدنيا فلا تأخذ منها شيئًا إلا بأسبابه، الدنيا دار سبب، فيها تعب، فيها همٌّ، وألم، وحُزْن، أغلب الظن أن الإنسان يُمْضِي شبابَه في حياةٍ خشنةٍ، فإذا ما وصل إلى الخمسين سنة من عمره، واستقرَّت حياتُه، وكَثُرَ دَخْلُهُ، وامتلك زِمامَ الأمور بدأت مشكلاتُ صِحَّته!

الحياة كلُّها متاعب، وشاءها اللهُ أن تكون كذلك حتى لا نَرْكَنَ إليها، الله يغار أن ترْكَنَ إلى الدنيا؛ لذلك ما إن يراك ركنت إليها إلا وتأتيك المتاعب من أيّ جهةٍ ركنت إليها، ليجعلك تلجأ إليه وحده.. قد تظن أن المال يحلُّ كل شيء.. يحل أية مشكلة.. فتُفاجأ أحيانًا أن من المشكلات ما لا يحله المالُ أبدًا، هذا من أجل أن تعتمد على الله لا على مالك، من اعتمد على ماله ضلَّ، من اعتمد على قُوَّته زَلَّ، أما من اعتمد على الله عزّ وجل لا يضِلُّ ولا يزِلُّ.

قال تعالى في آية أخرى: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [النحل:٣٢]، لا نقول: إن العملَ الصالح ثمنُ الجنة، ولكنه مفتاح الجنة، فمثلًا: الطالب إذا وعده أبوه أنه إذا نجح نجاحًا متفوقًا أن يشتري له درَّاجة، فالطالب يكون جاهلًا إذا رجع من المدرسة، وأعطى شهادة النجاح إلى بائع الدراجات، وقال له: أعطني هذه الدراجة! البائع سيطرده، ويقول له: ائْتِ بثمنها، أما إذا ذهب إلى أبيه، وأطلعه على الشهادة، سيشتري له أبوه

هـذه الدرَّاجة، فالنجاح ليس ثمن الدراجة، ولكنه مفتاحٌ لشراء الدراجة، وكذلـك العمـل الصالح فالجنة بفضـل الله عزّ وجل ورحمتـه، ومفتاحُها العمل الصالح..

﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمۡ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ٢٠ ﴾

الفسوق هو خروج الإنسان عن حدود الشرع بارتكاب المحرَّمات، كان حُرًّا في الدنيا يلتقي مع من يشـاء، يسـهر مع من يشاء، يأكل ويشرب مـا يشـاء، مع أهل الاختلاط المشـين، هـذا المال حلال، حـرام، لا يهمه، بل يقول لك: لا تدقق، فهذا حال الفاسـق المنحـرف الفاجر.. فعقابه في الآخرة – والعياذ بالله – نار جهنم.. تقول لهم زبانية النار [الملائكة المكلَّفة بالنار]: ذوقوا العذاب الذي كنتم تكذبون فيه في الدنيا حيث كنتم تقولون إنه ليس هناك حساب ولا عقاب!

﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَدۡنَىٰ دُونَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَكۡبَرِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ٢١ ﴾

العذاب الأكبر هو عذاب جَهَنَّم في الحياة الآخرة، أكبر لأنه إلى الأبد، وأكـبر لأنه لا يُحتَمَل، وأكبر لأنه لا أمل في نهايته، إذًا ربنا سـبحانه وتعالى من رحمته بهذا الإنسـان لئلا يصـل إلى العذاب الأكـبر يُذيقه من العذاب الأدنى في الدنيا، فكل مصيبةٍ في الأرض من دون استثناء هي عذابٌ أدنى، ولعل هذا العذاب الأدنى هو من رحمة الله، وقد يمنع من العذاب الأكبر، فـإذا فهمنا المصائب بهذه الطريقة عرفنا أن أكبر مصيبة أن تأتي المصيبة ولا نتَّعظ بها، وتفوت عليك فرصة التوبة والعودة إلى الله تعالى.. مَن لم تُحْدِث

المصيبةُ في نفسه موعظةً فمصيبته في نفسه أكبر، أكبر مصيبة أن تأتي المصيبة وأن نفهمها فهمًا أرضيًّا ساذجًا، وأن نقول: هذا حظي، هكذا الدهر، هكذا حدث لي، هذا فهمٌ غير إسلامي وغير صحيح...

إذا رأيت إنسانًا غارقًا في النعيم، قويًّا إلى أبعد الحدود، غنيًّا إلى أقصى الدرجات، يتنعَّمُ بكل شيء، وهو مقيمٌ على معصية الله فاعلم أن هذا استدراج من الله.. بل إن أغلب الظن أنه خارجَ العناية المشددة، خارج المُعالجة، إن صحَّ التعبير: مقطوعٌ منه الأمل.

أما إذا رأيت الله عزّ وجل يُتابعك على كل غلطة، على كل معصية، على كل مخالفة، بل على كل خاطر، على كل نيةٍ سيئة يأتيك العقاب عاجلًا، ويُلقي في قلبك أن هذه المصيبة مِنْ أجل كذا، إذا كنت كذلك فاعلم أن الله يحبُّك، فاعلم أنك ضمن المعالجة الإلهية، وأنك مرادٌ من قِبَل الله عزّ وجل، وإذا أحب الله عبدًا عجَّل له بالعقوبة، وإذا أحب الله عبدًا جعل له واعظًا من نفسه يأمره وينهاه، وإذا أحب الله عبدًا عاتبه في منامِه فاتّعظ...

فمثلًا لو كان على كتف إنسان عقرب، وتلقَّى هذا الإنسان ضربةً من خلفه فسيتمنى أن يمزِّق الذي ضربه إربًا إربًا، ولكنه عندما يلتفت سريعًا ويرى عقربًا كبيرة مُلْقاة على الأرض بفضل هذه الضربة، ألا ينقلب حقده وضغينته وألمه شكرًا وامتنانًا؟؟

هكذا يجب أن تعلَمَ، أنَّ يدَ الله كريمة، يد الله عليمة، يد الله خبيرة، يد الله محسنة، وأن كل شيءٍ ساقه الله إليك محضُ (باختياره وحده سبحانه) فضلٍ، فاعلم علم اليقين أن كل شيءٍ وقع أراده الله، وأن كل شيءٍ أراده الله وقع، وأن إرادة الله متعلقةٌ بالحكمة المطلقة، وأن حكمته متعلقةٌ بالخير

المُطلق، والدليل قوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُ ﴾ [آل عمران:٢٦]، لم يقل: بيدك الخير والشر، بل الخير فقط، فالإعزاز خير، والإذلال خير، والعطاء خير، والمنع خير، والإعلاء خير، والخفض خير، كُلُّه خير، خيرٌ واضح وخيرٌ مبطن، قال تعالى: ﴿وَأَسۡبَغَ عَلَيۡكُمۡ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾ [لقمان:٢٠].

﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعۡرَضَ عَنۡهَآۚ إِنَّا مِنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ٢٢﴾

أي: إن الظالم هو من ذَكّرهُ الله بآياته (رسالته، مواعظه ودلائله الكونية والتكوينية) وبيَّنها له ووضَّحها، ثم بعد ذلك تركها (بإختياره هو وحده) وأهملها وجحدها وأعرض عنها وتناساها كأنه لا يعرفها، وبذلك يكون قد اغْترَّ غرورًا كبيرًا، وذلك من أعظم الذنوب؛ ولهذا قال تعالى لمن فعل ذلك: إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ، أي: إن الله سينتقم ممن فعل ذلك أشد الانتقام.

﴿ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِي مِرۡيَةٖ مِّن لِّقَآئِهِۦۖ وَجَعَلۡنَٰهُ هُدٗى لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٢٣﴾

(في مرية) أي: في شك..

(من لقائه)، بعض المفسرين قال: المراد لقاء الله عز وجل، وبعضهم قال: لقاء ما وعد الله في كتابه، وبعضهم قال: من لقاء النبي عليه الصلاة والسلام لموسى عليه السلام في رحلة الإسراء والمعراج.

وهـذه الآية فيها تسـليةٌ للنبي عليه الصلاة والسـلام، أي: يا محمد، إيَّـاك أن تيأس، أي لا بدَّ من أن تلقى وعدَ الله بالنصر، إيَّاك أن تشُـكَّ أيها النبي، إن شـأنك شـأن الأنبياء السابقين مثل موسـى عليه السلام، دعوا إلى الله فكُذِّبـوا، وفي النهايـة جاء نصر الله، وكانوا هـم الأَعْلَون، والعاقبة لدِينهـم، والغلبة لأتباعهم.. قال تعـالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [المجادلة:٢١].

المؤمنـون في كلِّ زمانٍ ومكان أحوج ما يكونـون إلى هذه الآية، فلو رأيـتَ أنَّك في الترتيـب الأخير، وأن أهل الفسـق والفجور في الدرجات العليـا من السـلَّم الاجتماعـي، يجب أن تعتقـد اعتقادًا جازمًـا أن العاقبة للمتقين، وأن العِزَّة لله ولرسوله وللمؤمنين.

الإنسـان في ساعات الشدة، في سـاعات الضغط، في ساعات جَولة الباطل، قد يضعف، وقد ينكمـش، قال تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَـٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ ۚ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾ [آل عمران:١٤٦]، الضعف قد يكون نفسيًّا، حينما ترى أنك ضعيـف، وأن أهل الباطل أقوياء، حينـما ترى أنك فقير، وأن أهل الباطل أغنياء، حين ترى أنك لا حول لك ولا قوة، وأن أهل الباطل بِيَدِهم الحول والقوة - فيما يبدو -، لا تنكمش، لا تنغلِق، لا تشعر أنك رخيصٌ على الله عزَّ وجل، عليك باليقين أن وعد الله حق لا محالة مهما طال الزمن...

إذا كان النبـي عليـه الصلاة والسـلام - وهو سـيِّد الخلق - ماتت زوجته خديجة، فقد السـند الداخـلي، ومات عمُّه أبو طالب ففقد السـند الخارجي، واشـتد إيذاء قريش حتى سُمِّي العام العاشر للبعثة عام الحزن،

مَسَحَ الله عنه هذا الحزن في الإسراء والمعراج، عرف مقامه، عرف أنَّه سيد الأنبياء.

وقياسًا على هذه القانون فالمؤمن تجري عليه سنة الله في الأنبياء بالابتلاء ثم النصر، إذا كُذِّبت، إذا ضاقت بك الدنيا، إذا اشتد الخصوم، إذا سفَّهوا دعوتك، لا تيأس، لا تقنط، لا تضعف، لا تذِل، عليك باليقين من قوله تعالى: ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:١٣٩]، وأنت - لأنك مؤمن - عليك أن تَثْبُت ولو أن الناس كلهم فسقوا، لو أنهم فجروا، لو أنهم فهموا الدين فهمًا بسيطًا جدًّا وساذجًا، فهموا الدين صلاة وصيامًا فقط، يأكلون المال الحرام، يختلطون مع النساء المُحَرَّمات، يكذبون، يغشون، يفعلون ما يشتهون ولا يبالون، فإذا كانوا كذلك فلا تيأس، ولا تقنط، ولا تشعر أنك هيِّنٌ على الله عزَّ وجل، بل ذلك من الله تعالى ولحكمةٍ أرادها؛ فهناك أوقات يجول الحق جولته، وهناك وقت يجول الباطل جولته، الباطل له جولة، وللحق جولات كثيرة.

﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾

(أئمةً): جمع إمام، والإمام يجب أن يكون أمام أتباعه، كلمة إمام وأمام من أصل واحد، الإمام يجب أن يكون في الأمام، أي: أمامهم في تطبيق الأمر، وأمامهم في ترك النهي، وأمامهم في التقيُّد بالحدود، وأمامهم في فعل الخيرات، وأمامهم في الأمر بالمعروف، هذا معنى الإمام، قال تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة:١٢٤].

لن يسمح الله لك أن تنطق بلسان الحق، ولا أن تدعو إلى الله، ولا أن تكون إمامًا إلا إذا:

١ - طبّق الداعي (الإمام) ما يقوله للناس، فلن تستطيع أن تقول كلمة حقٍ، ولا أن تُحْدِثَ أثرًا في نفسٍ إلا إذا كنت مطبِّقًا لما تقول، أن تكون للناس إمامًا هذه مرتبةٌ عاليةٌ جدًّا، هذه صنعة الأنبياء، مُهِمَّتهم الأولى، ولكن دون هذه المرتبة تتحَطَّمُ أعناق الطامحين، الآية الكريمة تقول: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى:٥٢]، تهدي إلى صراط مستقيم، وأنت في الوقت نفسه على صراطٍ مستقيم، فما رأى أصحابُ النبيِّ ﷺ شيئًا قاله النبي ولم يفعله، وما رأوا شيئًا نهى عنه وفعله، ما الذي رفع النبي إلى أعلى عليين؟ ليس في حياته ازدواجٌ أبدًا، ليس في حياته مسافة بين القول والعمل، ما في قلبه فهو على لسانه، وما في لسانه فهو في قلبه، قال رسول الله ﷺ: «تَرَكْتُكُمْ عَلَى الْبَيْضَاءِ، لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا، لَا يَزِيغُ عَنْهَا بَعْدِي إِلَّا هَالِكٌ» [رواه ابن ماجه عن العِرباض بن سارية].

سُئِلَ الإمام الجنيد رحمه الله تعالى: مَنْ وَلِيُّ الله؟ أهذا الذي يمشي على وجه الماء؟ قال: لا.. قالوا: أهذا الذي يطير في الهواء؟ قال: لا، ثم قال: «الولي الذي تجده عند الحلال والحرام»، والآية دقيقة جدًّا: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات:١٣]، أيُّ شيءٍ آخر لا يدلُّ على أن الله يحبك، لو كنت متمتعًا بصحةٍ جيدة، لو ملكت أكبر رصيد في العالم، لو كنت أقوى إنسان في الجسم أو في العلم، الله عزَّ وجل أعطى القوة لمن يحب ولمن لا يحب، إذًا لا يمكن أن تكون القوة ولا المال ولا الجمال ولا الذكاء مقياسًا لرضاء الله عنك، المقياس الدقيق الذي ورد في كتاب الله هو (التقوى).

٢-الصبر: المقياس الثاني ورد في هذه الآية:

﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ... ﴿٢٤﴾ ﴾

أصبرُ على ماذا؟ تصبر عن الشهوات التي نهى الله عنها، وتصبر على الطاعات التي أمر الله بها، وتصبر على فعل الله التكويني، فلو جعلك عقيمًا فهذا قضاء الله وقدره، ومرحبًا بقضاء الله وقدره، جعل لك دخلًا محدودًا، جعلك تولد من أبٍ معيَّن وأمٍّ معينة، هذا قضاء الله، فيجب أن ترضى بقضاء الله وقدره؛ لذلك أنْ ترضى عن الله هذا علامة إيمانك، علامة معرفتك بالله عزَّ وجل.

٣ـ عدم طلب الأجر من الناس في الدعوة، قال تعالى: ﴿ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ [يس]، لا أجرًا ماديًّا، ولا معنويًّا، ولا تحقيقًا لمصالح، الإنسان الذي يتنزَّه عن أن يجعل الدينَ وسيلةً إلى الدنيا، هذا مهتدٍ...

وقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ [الأحزاب:٣٩]، هذه من علامات أهل الصدق، أهل الحق، هذه كلُّها دلالاتٌ وضعها الله بين أيدينا في كتابه لنعرف الحقَّ من الباطل، والمُحِقَّ من المُبْطل، والمؤمنَ من المنافق، والصادق من الكاذب، والمخلِص من الخائن، وهكذا..

أن تهدي الناسَ، هذا الهُدى ليس على مزاجك، وليس وَفْقَ رغبتك، ولا حسب رأيك، يجب أن تَهْدي الناس بأمر الله عزَّ وجل وفق الأمر والنهي الذي أمرنا به، لذلك أحد كبار العلماء قال: إن عمل الإنسان لا

يُقْبَـلُ إلا بشرطين: أن يكون خالصًا ويكون صوابًـا، خالصًا: ما ابتُغِي به وجهُ الله، وصوابًا: ما وافق السـنة، فلو كان خالصًا ولم يكن موافقًا للسنة لا يُقبَل، ولو كان موافقًا للسنة، ولم يكن خالصًا لا يُقبل.

﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً ... ﴿٢٤﴾ ﴾

إن هـؤلاء الأئمة ما كان لهم أن يهـدوا الناس إلا بأمر الله عزَّ وجل، بأمره التكويني، وبأمره التشريعي، أي: سمح الله لهم أن يكونوا أئمة.

لا يوجـد إنسـان - بعد النبي عليـه الصلاة والسـلام - بإمكانه أن يقـول: اتبعوني، مَـنْ أنتَ حتى نتبعك؟! أمَّا أنْ يقول: اتبعوا رسـول الله، وأنـا أنقل لكم ما قاله النبي، فهذا هو الصـواب، كما يقول أيضًا: أنا أنقل لكم ما جاء في الكتاب والسنة.

﴿ ... لَمَّا صَبَرُوا ... ﴿٢٤﴾ ﴾

الله عزَّ وجل وزَّع الأرزاق، وزَّع الذكاء بين الناس متفاوتًا، وزَّع المال بتفـاوتٍ كبير، وزَّع القوة بتفاوتٍ أكبر، هناك أقوياء وهناك ضعفاء، هناك أغنيـاء وهناك فقـراء، هناك أصِحَّاء، وهناك مرضى، هنـاك أذكياء وهناك أغبيـاء، هناك مـن منحهم الله جمـال الصورة، وهناك من سـلبهم الله هذا الجـمال، فهذه الحظوظ وزَّعها الله سـبحانه وتعالى في الدنيـا توزيعَ ابتلاء، أي: كلُّ واحـد منَّا له مادَّةُ امتحانٍ مـع الله، إن كان فقيرًا مادة امتحانه مع الله: الفقر، هل يرضى؟ هل يصبر؟ هل يتعفف؟؟ والغني مادة امتحانه مع الله: الغِنى، هل يسـتخدم هذا المال في سـبيل الله؟ في سبيل إعانة الضعفاء والبائسين؟

فكلمة (صبروا) معناها الأول: صبرٌ على الطاعات، ومعناها الثاني:

صبرٌ عن الشهوات، والثالث: صبرٌ على نصيبك من الله عزَّ وجل.

٤- اليقين..

﴿...وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾

المؤمن عنده يقين بقضاء الله، قال الإمام عليٌ كرَّم الله وجهه: «الرضا بمكروه القضاء أرفعُ درجاتِ اليقين».

الحقيقة أن النبي عليه الصلاة والسلام سلك مع أصحابه منهجًا تربويًّا رائعًا، في مرحلةٍ مكيَّةٍ عرَّفهم بالله عزَّ وجل، ورسَّخ عقيدتهم بأسمائه الحسنى وصفاته الفُضلى، وفي مرحلةٍ مَدنيَّةٍ جاء التشريع، فنحن إذا عكسنا الأمر وبدأنا بالثانية فلن نحقِّقَ الهدف، لا بدَّ من أن نعرف الله عزَّ وجل أولًا، لا بدَّ من أن نعرف الله حتى نطبِّق أمره، لا بدَّ من أن نعرف المُشَرِّع حتى نطبق شَرْعه، لا بدَّ من أن نعرف الآمر حتى نُطَبِّقَ أمره، إذًا: ﴿...وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾، أي: أيقنوا بحقائق أساسية، أيقنوا بوجود الله، وأيقنوا بوحدانيَّته، وأيقنوا بكماله، بقوّته، بعلمه.

لن تستقيم على أمر الله إلا إذا أيقنت بأنك ستحاسب، وبأن هناك حياةً أبديةً سرمدية، إما في جنةٍ يدوم نعيمها، أو في نارٍ لا ينفد عذابها، والدليل قول الله عزَّ وجل: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق:١٢]، أي: إذا أيقنت بأن الله يعلم، وأنه يقدر عليك فلابدَّ من أن تستقيم على أمره، والإنسان إذا أيْقن أنَّ إنسانًا مثلَه لكنَّه أقوى منه يطوله علمه، وتطوله قدرته فإنه يأتمر بأمره، وانظر إلى نظام السير مثلًا،

فلو كنت في مكان وخالفت فستُضبَطُ متلبِّسًا بالمخالفة، حينئذ لا بدَّ من أن تنال العقاب، وإذا عرفت العقاب لا يمكن أن تخالف أبدًا.

﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾

الله وحده عنده القرار النهائي، يعلم مَن هو على حق ومن هو على باطل، يعلم الكاذب ويعلم الصادق، يعلم الدجَّال ويعلم المخلص، ويعلم المُسْتَبْصِر، ويعلم الأعمى، ويعلم الوصولي، ويعلم المرتزق بالدين، وكل الحركات والسكنات في علمه، إذًا الله عزّ وجل هو الوحيدُ الذي يحكم يوم القيامةِ على كل إنسان، يقول له: أنت كنت على باطل أو أنت كنت على حق، قال تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم ﴾ [يس:٦٥].

بإمكانك أن تخدع الناسَ إلى أمدٍ قصير، وبإمكانك أن تخدع بعض الناس إلى أمدٍ طويل، أما أن يسمح الله لك أن تخدع الناس دائمًا، أو أن تخدع بعض الأشخاص دائمًا فهذا مستحيل، لا بدّ من أن يُكشَفَ الإنسان على حقيقته، والله سبحانه وتعالى يتولَّى ذلك، والدليل قوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ﴾ [آل عمران:١٧٩]، يخلق الله ظروفًا صعبة، فهذا الذي يدَّعي أنه مؤمن سوف ينكشف، هذا الذي يدَّعي أنه وَرِع سوف ينكشف، هذا الذي يدَّعي أنه محبٌّ لله عزَّ وجل سوف ينكشف...

الله عزّ وجل في معركة الأحزاب في المدينة المنورة قال: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ

رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب:٢٣]، وفي المعركة نفسها بعض الرجال المنافقين قالوا: ﴿مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الأحزاب:١٢].

الإنسان في الأعماق إذا اشتد عليه الضغط كشف عن حقيقة نفسه، وفي هذا المقام قال أحدُ الأشخاص المحسوبين على أهل الإيمان: «أَيَعِدُنا صاحبُكم [لم يقُلْ: رسول الله؛ فليس محمد ﷺ عند هذا القائل رسولًا] أنْ تُفتَح علينا بلادُ قيصر وكِسرى، وأَحَدُنا لا يأمن أن يقضي حاجته؟!»، وأُناسٌ آخرون قالوا: «وصدق الله ورسوله».

إذًا الإنسان يُمتَحَن، والآية الكريمة تقول: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت:٢]، هل في الأرض جامعة تقبل من طلابها أن يقدِّموا علامةً لهم يقترحونها؟ أو يُجرى لهم امتحان يحدد مستواهم؟

أَيُسْمَحُ لك أن تدَّعي أنك مؤمنٌ، وأن الله لا يمتحنك؟، قل ما شئتَ، لكنَّ الله سبحانه وتعالى قد يضعك في ظرفٍ عصيب فتنكشف على حقيقتك؛ لذلك فالإنسان يجتهد في تحسين باطنه لئلَّا يكشفه الله عزّ وجل..

قال علماء التفسير:

مِنْ لوازم هذه الآية أن الله يفصل بينهم يوم القيامة، أي يقول: أنتم على حق، وجزاؤكم الجنة فادخلوها، وأنتم على الباطل، وعليكم العذاب.

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾﴾

الطريق الأول للتفكُّر:

آثار الأقوام السابقين ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾، أي: أما رأوا بأُمِّ أعينهم - وهم في طريقهم إلى الشام - منازل أقوام عاد وثَمود؟ وآثارَ الأنباط في الأردن ماثلةً إلى الآن، أصحابَ الحِجْرِ، ترى البيوتَ، القصورَ... كلُّها منحوتة في الجبال..كما قال تعالى: ﴿وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا﴾ [الأعراف:٧٤].

قد يزور الإنسان مِصْر، ويرى الأهرامات، ويرى قبور الفراعنة، وفي ساعة غفلة قد يغيب عنه أن هذه الآثار من الأدلَّة الصارِخَة على أن الله سبحانه وتعالى أهلكهم، وأنهم مضوا يلقون جزاء أعمالهم: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر:٤٦].

مِن مسالك الاعتبار: ﴿يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ﴾

(أغادير) كانت من أفسق المدن في المغرب، يرتادُها السيَّاح من شتَّى بقاع العالم، وفيها نوادي عُراةٍ، وفيها نوادٍ ليلية، وفيها مُوبقات لا يعلمها إلا الله، في ثلاث ثوانٍ أصابها زلزال فأصبحت قاعًا صفصفًا، وكان فيها فندق كبير تُرتَكَب فيه كلُّ المعاصي، وكان هذا الفندق مكونًا من ثلاثين طابقًا! غاص في الأرض كُلُّه، ولم يبق منه إلا لوحته التي على الطابق الثلاثين فوق الأرض، فإذا سار الإنسان في (أغادير) يرى اسم الفندق على ارتفاعِ مترٍ واحد، هذه اللوحة كانت في الطابق الثلاثين، بقيت مثل الشاهد على القبور، فِعْلُ اللهِ واضح..

فـإذا أردت أن تعرف الله من خـلال أفعاله فاقرأ التاريـخ، وأَعْمِلْ نظرَكَ فيه، قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟﴾ [الكهف:٥٩].

إذا رأينـا قريـةً لم يُهلكهـا الله عـزّ وجل، وهـي مقيمةٌ عـلى الفجور والآثام فلابدّ أن هناك شيئًا ما ينتظرها؛ لأن ربنا عزّ وجل يقول: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ [النحل:١١٢]، وفرعـون قال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات:٢٤]، مـا مصيره؟ أدركه الغـرق، وقال - متأخِّرًا ونادمًا حـين لا ينفع الندم -: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس:٩].

إن الله عـزّ وجل لحكمةٍ أرادها ترك بعض الآثار، لتتَّعِظ بها، ولتعلم أن الله سـبحانه وتعـالى عاقب الأقـوام الذين كفـروا عقابًا شـديدًا، أفلا يسمعون عن هذه الآيات والأخبار؟ ألم يتعظوا ؟!!

الطريق الثاني للتفكُّر: طريق الكون:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾

الأرض الجرز أي: اليابسة القاحلة التي لا نبات فيه، وبعد أن يسقيها الله عز وجل من الماء تُخْرِج زرعًا بإذنه.

تُعَـدُّ ظاهرة النبـات من أكبر الآيـات الدالَّة على الله عـزّ وجل، إذا تركـت التاريخ فعليك بالكون، عليك بظاهـرة النبات، وظاهرة الحيوان، وظاهرة الماء، وظواهر الجبال، والليل والنهار...

إذًا البصر طريقٌ إلى الله، والسمع طريق إلى الله، إما أن تسمع القرآن، وإما أن تـرى الأكوان، القرآن كونٌ ناطق، والكون قرآن صامت، وإما أن تقرأ سيرة النبي ﷺ، والنبي قرآنٌ يمشي.

هـذا الدين عقل ونقل، الله عزّ وجل سـخَّر الكون تسـخيرَ تعريفٍ وتكريم، ومنحـك نعمة العقل، أعطاك عينًا، وقـال: انظر، فأنت مكلفٌ أن تنظر بعينك، وأن تحكم بعقلك، وقد تلا عليك أخبار السـابقين، وقال لـك: تأَمَّـل، فحينما تأتيـك الأخبار يسـألك الله عزّ وجل: أفلا تسـمع؟ وإذا دعـاك إلى النظر يقول لك: أفلا تنظر؟ بين أفلا تسـمع؟ وأفلا تنظر؟ مسـافةٌ كبيرة، فأنت يمكنك أن تتلقَّى العلم عن طريق السماع، ويمكن أن تتلقَّـى العلـم عن طريق النظر، فأنـت بالكون تنظُر في آياتـه، أو تتفكَّر في آياته فتعرف الله، وأنت من خلال الأحداث السابقة تستمِعُ إليها، وتتأَمَّل بهـا فتعرف الله، ومن خلال القرآن الكريم تتدبَّر آيات القرآن فتعرف الله، فلديك ثلاثة مصادر: الكـون مصدر للتفكُّر، والأحداث للنظر، والقرآن للتدبُّـر، وأيُّ بابٍ فيهم يوصلك إلى الله.. والأبـواب والطريق إلى الخالق بعدد أنفاس الخلائق.

لا تبتعد كثيرًا، المسلمون حينما فتحوا الأندلس كانوا مطبِّقين لأمر الله عزّ وجل، فجعلهم أقوياء، وجعل خصومهم ضعفاء، وحكموا الأندلس قرونًـا طويلـةً، وازدهر فيها حُكْمُهُم، وحينما مالـوا إلى التَّرَفِ، ومالوا إلى شرب الخمـور، واقتنـاء القِيَان [المغنِّيـات]، وما إلى ذلـك... ألقى الله في قلوبهم الخوف، فتمزقوا شراذم، وقوي عليهم أعداؤهم حتى أخرجوهم.

القضية واضحة جدًّا، فالتاريخ في الحقيقة مدرسـة، المسلمون حينما طَبَّقـوا منهـج الله عزّ وجل رفرفـت راياتهم في الآفـاق ونمت حضارتهم

وبهروا العالم، فلما تخاذلوا، وتهاونوا في شأن دينهم اقتحمهم أعداؤهم وما زال هذا الأمر نعيشه إلى اليوم؛ لذلك إذا رأيت شيئًا لا يُرضيك فقل هذه المقولة: «هان الله عليهم فهانوا على الله»، وأنت على مستوى فَرْدي، إذا كان أمر الله ليس له أي قيمة عندك، فتَحَمَّل المتاعب، وتَحَمَّل الضغط، ولو أَعْزَزتَ دينَ ربِّك فإن الله سيعزك، وإن نصرت دين الله فسينصرك اللهُ عزّ وجل، قال تعالى: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ﴾ [محمد:٧]، وقال: ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ﴾ [البقرة:١٥٢]، ومن أقوال رسول الله ﷺ: «اِحْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ» [رواه الترمذي عن ابن عباس]، فالأمور واضحة جدًّا.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡفَتۡحُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٢٨﴾

(متى) جوابها - في الأصل -: يوم كذا، لكن الجواب هنا لم يأت كذلك؛ والسبب أن سؤالهم سؤال استهزاء، والمُستهزِئ لا يُجاب، وجاء الردُّ:

﴿قُلۡ يَوۡمَ ٱلۡفَتۡحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِيمَٰنُهُمۡ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ٢٩﴾

أيْ لو جاء الفتح، وحُكم على الكفار بالهلاك، عندئذٍ لا ينفع الندم؛ لأنَّ هؤلاء الكفار وصلوا إلى الطريق المسدود..

﴿فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ ...٣٠﴾

دَعْهم وشأنَهم، والتفِتْ إلى المؤمنين..

﴿...وَٱنتَظِرۡ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ٣٠﴾

ينتظرون بك الهلاك، ينتظرون لك الهزيمة، ينتظرون لك السوء..

قال تعالى في آية أخرى: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا﴾ [آل عمران:١٢٠]، يا محمد، أَعْرِضْ عنهم، وانتظر لهم تنفيذ وَعْدِ الله عزّ وجل لهم بالهلاك والعذاب؛ لذلك على المؤمن أن يلتفت إلى أهل الإيمان، إلى مَنْ فيه خيرٌ، إلى من يُرْجى منه الخير، أما المُعانِد المُكابِر، المُتناقِض المُستهزِئ... فَدَعْكَ منه، والتفِتْ إلى الله عزّ وجل.

والحمد لله رب العالمين..

تم بحمد الله

الفهرس

إهداء ٥

مقدمة ٧

سورة السجدة: آياتها ١١

تسميتها ١١

سبب نزولها ١١

فضل سورة السجدة ١٢

محاور السورة ١٢

السورة: النص ومعاني الكلمات مع هداية الآيات ١٤-١٩

التفسير الموضوعي لسورة المؤمنون ٢١

من خواطر ومحاضرات فضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي ٢٧

الفهرس ٩١

ملاحظات

١.

٢.

٣.

٤.

٥.

٦.

٧.

٨.

٩.

١٠.

١١.

١٢.

١٣.

١٤.

١٥.

ملاحظات

١٦.

١٧.

١٨.

١٩.

٢٠.

٢١.

٢٢.

٢٣.

٢٤.

٢٥.

٢٦.

٢٧.

٢٨.

٢٩.

٣٠.

ملاحظات

٣١.

٣٢.

٣٣.

٣٤.

٣٥.

٣٦.

٣٧.

٣٨.

٣٩.

٤٠.

٤١.

٤٢.

٤٣.

٤٤.

٤٥.

3alamatnisurah